دكتور / عبد الحليم عويس

بنو أمية بين السقوط والانتحار

دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق



اهداءات ٢٠٠٢
شركة سوزلر للنشر
القاهرة

بنــو أميــة

بين الســقوط والانتحــار

دراسة حول سقوط دولة بنى أمية فى المشرق

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الطبعـــة الأولى
١٤٠٧ هـ ـــ ١٩٨٧ م

دكتور / عبد الحليم عويس

استاذ مشارك بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

بنو أمية بين السقوط والانتحار

دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق

بسم الله الرحمن الرحيم

بنو امية والكتابات المتحيزة

توطئة : ـ

قامت دولة بنى أمية فى المشرق عام الجماعة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) وعاشت تواجه عدداً من المشكلات حتى انتهت سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ...

أسسها أموى هو معاوية بن أبى سفيان (٤١ ـ ٦٠ هـ) وسقطت ـ وهى لاتزال فتية ـ على عهد أموى آخر هو مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢ هـ) .

يكاد يجمع المؤرخون على أن مؤسس الدولة عظيم من عظماء العرب وداهية من دهاتهم ... ويكادون يجمعون كذلك على أن مروان بن محمد الذى سقطت الدولة فى عهده عظيم كذلك ، وأنه ـ لولا تكالب عوامل السقوط وبزوغ دعوة آل العباس ـ لكان قادراً على قيادة السفينة ، وأنه كان كفئا بارعاً .

وبين هذين الرجلين العظيمين ـ مع اختلاف فى درجة

العظمة بينهما ــ تتابع خلفاء بنى أميــة الأربعــة عشر ...
فكان منهم عظماء كبار ، وبناة دول من طــراز نادر ، مثــل
عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ) ، والوليد بن عبد الملك
(٨٦ ــ ٩٦ هـ) ، وعمــر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) ،
وهشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) ...

وتكاد فترة حكم هؤلاء الذين يكاد الإجماع ينعقد على
عظمتهم ــ حتى من بعض خصــومهم ــ تغطى ثلاثة أرباع
الفترة الزمنية للحكــم الأموى فى المشرق .. فهى بالتحديد
تنتظم سبعا وسبعين سنة من حكم بنى أمية الذى يبلغ إحدى
وتسعين سنة !!

فعلام سقطت هذه الدولة الشابة الفتية إذن ؟

ــ إن هذا السؤال كان ــ ولازال ــ يلح على مؤرخــى
الإســلام ــ ولعله ليس من المبالغة القول : إن كثرة طــرح
السؤال فيما يتعلق بالدولة الأموية دليل ــ فى حد ذاته ــ على
نوع من الاندهاش والحيرة لدى جمهرة المؤرخين إزاء هــذا
العمر القصــير والســقوط السريع لدولة الفتوحات العظيمة
التى حفلت بعظماء كبار من طراز معاوية وعبد الملك وعمر بن
عبد العزيز !!

إن أية مقارنة تاريخيــة بين شخصيات الدولة الأموية
وأعمالها وشخصيات عدد من الدول التى طال عمرها أضعاف

الدولة الأموية وأعمالها كذلك ـــ سوف تكشف لنا أن الأمويين لم يكونوا أقل من غيرهم ، إن لم يكونوا أفضل منهم ، سواء فى نوعية الشخصيات الحاكمة وإمكاناتها الخلقية والنفسية والفكرية والتزامها بالإسلام ، أم فى الأعمال العامة الحربية والسلمية التى قامت بها كل دولة من هذه الدول •

فالفاطميون ـــ كمثال ـــ كان حكامهم فى المغرب ومصر أربعة عشر خليفة ، وهو نفس عدد خلفاء بنى أمية ، وقد كانت صراعاتهم فى أغلبها مع المسلمين ، وكانت امتداداتهم الحربية على الأرض الإسلامية نفسها ، وإنه لمن التجاوز مقارنة شخصيات خلفائهم ـــ من ناحية أعمالها الخارجية والداخلية والتزامها بالإسلام (١) ـــ بخلفاء بنى أمية ، وبالأعمال التى قام بها بنو أمية فى الداخل والخارج ••• ومع ذلك فقد عاش الفاطميون يحكمون مصر أكثر من قرنين (٣٥٨ ـــ ٥٦٧ هـ) !! وحكموا المغرب أكثر من ستين سنة ••

فكيف وقع هذا التناقض بين عمر الأمويين والفاطميين ـــ مع ما تميز به كل منهم ؟!!

---

(١) انظر فى هذا السبيل : القاضى النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ١ ، ٢ ، ٣ وما بعدها بتحقيق فرحات الدشراوى طبع بتونس وانظر ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية تحقيق محمود زايد ص ٢٠٧ وما بعدها طبع بيروت ١٩٧١ ، وانظر ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد طبع الرياض ص ١٥ وما بعدها . وانظر عبد الحليم عويس : قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخى نشر دار الصحوة بالقاهرة ط ١ / ١٩٨٥

إنه ليبدو لى ــ كفرضية أطرحها فى باب تفسير التاريخ ــ أنه لا تطابق بالضرورة بين أعمار الدول وبين عظمتها ... وإن سقوط الأمويين السريع ليس دليلا على عدم جدارتهم ، كما أن امتداد أعمار بعض الدول ليس دليلا ــ بالضرورة ــ على أهليتها للبقاء ...!!

ولربما يرى كثير من دارسى التاريخ أن ميزان الأمويين فى التاريخ ــ على قصر عمرهم ــ لا يقل عن ميزان العباسيين مع طول عمرهم (١٣٢ ــ ٦٥٦ هـ) !!

وبالتالى فإننا يجب أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التى أودت ببنى أمية ، دون أن نحمل أفكاراً ثابتة مسبقة ضدهم أو أن نكون قد تأثرنا بتلك الكتابات الشائعة التى ذهبت تعالج تاريخ بنى أمية ، وهى منتمية أصلا لموقف فكرى عقدى أو سياسى أو عاطفى مناهض لهم !!

بنو أمية والأحكام العاطفية :

إن كتابات مثل كتابات يوليوس فلهوزن عن (تاريخ الدولة العربية ــ من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية) وكتابات فان فلوتن عن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية) وكتابات عبد الرزاق الأنبارى عن (تاريخ الدولة العربية) قد دخلت باب الكتابة عن

الأمويين ، وهى تحمل أفكاراً مسبقة ، ولعل الإصرار على استعمال مصطلحى (الدولة العربية ، والسيادة العربية) يحمل حكماً مسبقا على الأمويين بأنهم كانوا ذوى نزعة عربية متعصبة !! أو على الأقل كأن الأمر انتقل من دولة راشدية إسلامية عامة إلى دولة تحكم لصالح العرب وحدهم !!

على أن بعض المصادر التاريخية لم تخل من هذا الموقف العقدى أو العاطفى المسبق ، ولعل هذه المصادر هى المسئولة عن كثير من التشويهات التى وقعت لتاريخ بنى أمية .

فكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ كتاب ملىء بالغرائب فيما يتعلق ببنى أمية ، وصاحبه متحيز ضدهم ، وهو لا يذكر لنا مصادره ولا سلسة رواته (١) ، والذين درسوا حياة ابن قتيبة يتشككون فى نسبة الكتاب إليه ، لأن ابن قتيبة أديب أكثر منه مؤرخا ... كما أنه كان أمينا فى ترجماته التى وردت فى كتابه (المعارف) لبعض شخصيات العصر الأموى ، وهو ما يتناقض مع ما أورده — إذا صحت نسبته إليه — فى كتاب الإمامة والسياسة ... فالكتاب فضلا عن كونه مشكوك النسبة إلى صاحبه لم يوثق رواياته .

---

(٢) انظر عبد الرزاق الأنبارى تاريخ الدولة العربية ص.(ح)
وانظر : سيدة اسماعيل الكاشف : مصادر التاريخ الإسلامى مكتبة الخنانجى ١٣٩٦ هـ ص ٣٣

ومن معاصرى ابن قتيبة الذين كان لهم موقف عقدى وعاطفى مسبق من الأمويين أحمد بن أبى يعقوب المعروف باليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ••• فقد اشتهر اليعقوبى بميوله العلوية (٣) وقد ألف تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبى ، وأظهر تعصبا ضد بنى أمية على امتداد صفحات الكتاب •

وكان أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة (٢٨٢ هـ) ومعاصر ابن قتيبة واليعقوبى من المتعصبين للموالى ضد العرب ، ولهذا فقد كثرت الروايات الضعيفة عنده ، ولم يأت بأسانيد لرواياته فكانت رواياته غير دقيقة ومضللة (٤) •

كما أن مؤرخنا الكبير الرحالة أبا الحسن على بن الحسين ابن على المسعودى المتوفى سنة (٣٤٦ هـ) صاحب كتابى مروج الذهب والتنبيه والإشراف دخل إلى مجال التاريخ الأموى وهو يحمل ــ سلفاً ــ تحيزا مسبقاً ضد معاوية فى صراعه مع على بن أبى طالب ، واضطرابا فيما يرويه عن يزيد بن معاوية ، وعدم رضا وقبول لشخصية عبد الله ابن الزبير ، وتناقضا فى كلامه عن عبد الملك بن مروان ، وظلما وإجحافا ومبالغة وجموحاً فيما سطره عن الحجاج الثقفى (٥) ، وبصفة

---

(٣) انظر سيدة كاشف : المرجع السابق ص ٣٣ وانظر عبد الرزاق الأنبارى المرجع السابق ص (خ) .
(٤) هامش (٣) عبد الرزاق الأنبارى : المكان السابق .
(٥) انظر سليمان السويكت : منهج المسعودى فى كتابة التاريخ (رسالة دكتوراه) السعودية الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ صفحات ٣٦٢ الى ٣٦٧

إجمالية أثرت نزعة المسعودى الشيعية على كتابته فى تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين ، ولم يستطع أن يكتب تاريخـا مجرداً من الهوى (٦) وقد رفض اليعقوبى والمسعودى ـ كموقف مبدئى ـ الاعتراف ببنى أمية ـ كخلفاء ـ وكانا يتحدثان عن تاريخ خلفاء بنى أمية تحت عنوان (أيام ...) فيقولان أيام عبد الملك بن مروان ... (٧)) وهكذا فى بقية الخلفاء ، وهو ما يعكس موقفا ثابتا مسبقا ـ كما ذكرنا ـ !!

فإذا أضفنا إلى هذه المصادر التاريخية ذات الموقف العقدى والعاطفى المسبق تلك الكتب الأدبية التى اعتمدها بعضهم ـ دون حذر وتمحيص ـ (٨) كمصادر تاريخية ، وكان أصحابها من أصحاب الميول العلوية وكانوا من هواة جمع المعلومات ذات الطابع القصصى المثير ، دون أن يتثبتوا من صحتها رواية ودراسة ... إذا أضفنا هذه الكتب ـ وعلى رأسها كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة (٣٤٩ هـ) وكتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ(٩)،

---

(٦) (المرجع السابق) ص ٣٦٧ وانظر عبد الرزاق الانبارى: تاريخ الدولة العربية العصر الراشدى والأموى طبع بغداد ١٤٠٦هـ ص (ر المقدمة) .

(٧) انظر ـ مثلا ـ المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الثالث صفحات ٤٩ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ٩٩ ، وغيرها طبعة دار الفكر بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، وانظر عبد الرزاق الأنبارى مرجع سابق ص (خ) .

(٨) انظر عبد الرزاق الانبارى : المرجع السابق ص (ر) .

(٩) المكان السابق .

والكامل للمبرد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فإننا سندرك أثر ذلـــك الحاجز السميك الذى حال دون الوصول إلى كثير من الحقائق المتصلة بتاريخ بنى أمية فى المشرق !! .

ومن الجدير بالذكر أن هناك مصادر كانت محايدة ، ومن بينها تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وتاريخ الأمم والملوك للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ،وجوامع السيرة والرسائل الملحقة بها لابن حزم الأندلسى سنة ٤٥٦ هـ ، والعواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، والعبر فى أخبار العرب والعجم والبربر لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ...

وقد وقفت هذه المصادر ــ وغيرها ــ موقفاً محايداً إلى حد كبير فى الحكم على الدولة الأموية .

ومع ذلك فلم تستطع هذه المصادر المحايدة أن تقف أمام هذا الحاجز السميك الذى حال دون إنصاف بنى أمية ، وجذب نحـــوه عشرات من الدراســـات العـــاطفية التى توالت عبر العصور حتى عصرنا الحديث (١٠) .

---

(١٠) انظر ــ على سبيل المثال كتابات الاستاذ سيد قطب فى العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، وكتابات الأستاذ عباس محمود العقاد عن عبقرية على ومعاوية فى الميزان ، مـــع أنهما كاتبـــان

والحق أن هناك أسـبابا وقفت مع المنهج المتحيز على حساب المنهج المحايد ، وكانت وراء هذا الميل السائد لـدى جمهرة كبيرة من المسلمين لظلم بنى أمية ، ومن هذه الأسباب:
١ ــ إن صراع بنى أمية يفسر دائما وبصفة مطلقة على أنه كان صراعاً مع أهل البيت ، أدى إلى انتقاص من قدرهم ، وسلب لبعض حقوقهم ، وقد نسيت القضية الأساسية التى كانت محور الصراع ، وهى (مقتل عثمان) ، وهى قضـية خلافيــة لم يختلف فيها على ومعـاوية وحــدهما ، بل كان مع كل منهما عدد كبير من الصحابة والتابعين !! .

٢ ــ يرى بعضهم أن العداء كان تقليديا وأصيلا ، بل وسابقاً للإسلام ، بين فرعى عبد مناف : عبد شمس ثم أمية فحرب ، فأبى سفيان ، وهاشم فعبد المطلب فعبد الله فمحمد ــ ﷺ ــ ، ويدخل فيهم ــ بالضرورة ــ أبناء عبـد المطلب جميعاً ...

ويؤكد هؤلاء رأيهم بأن كثيرا من الأمويين ــ فى رأيهم ــ وقفوا من الرسالة المحمـدية موقف العداء المطلق . ولهــذا

= جيدان ، وانظر من باب أولى كتابات طه حسين فى الفتنة الكبرى وغيره ، فهى دراسات متعصبة تفتقد أبسـط أركـان التحقيق التاريخى ، وانظر ما كتبه الكاتب اليسارى أحمد عباس صـالح حول اليمين واليسار فى الإسلام ، وماكتبه عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه (على إمام المتقين) .. وغيرها من الدراسـات المتحيزة المتأثرة بالمنهج الشائع حول بنى أمية .

يبدى هؤلاء مشاعر بغض لبنى أمية ، وهم يظنون أن موقفهم المتحيز (١١) ، إنما هو تحيز للإسلام ولآل الرسول عليه السلام ضد خصومهم (١٢) .

٣ — ومن أبرز الأسباب التى شجعت الكتابات المتحيزة أن هناك طوائف قد ظهرت فى العصر الأموى معادية — منذ البداية — لبنى أمية ، وأبرزها طائفة الشيعة التى بدأت كحركة منحازة لآل البيت ، ثم تطورت فأصبحت مذهبا محدداً وطائفة محددة ، كما ظهرت طائفة الخوارج بفروعها المختلفة، وقد بقى أعداء الأمويين يحكمون العالم الإسلامى بعدهم لقرون طويلة ، فالعباسيون الذين قاموا على أنقاضهم قد

---

(١١) انظر عبد الشافى محمد عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى دراسة سياسية — الطبعة الأولى مصر ١٤٠٤ هـ ص أ ، ب وقد فند الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف دعوى العداء التقليدى بين بنى هاشم وبنى امية فى صفحات تالية من كتابه وذكر أنه مجرد تنافس على الشرف والسيادة فى الجاهلية وكانوا يرضون ما تقضى به الكهان ، وقد كان عبد المطلب صديقا لحرب وكان العباس صديقا لأبى سفيان ، فأى عداء تقليدى إذن ؟ .. (انظر ص ٣ ، ٤ من المرجع السابق) .

(١٢) لم تكن عداوة الإسلام وقفا على بنى امية ، بل كان من بنى هاشم اعداء للرسول ، وكان من الامويين سابقون كثيرون للإسلام ، وهل كان عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس — إلا أمويا مع ما بلغه من مكانة فى نفس الرسول ؟ .. — وقد جب الإسلام ما قبله ، وقام الأمويون بدور عظيم أيام الرسول بعد فتح مكة وفى أيام أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وكانوا موضع ثقة جميعهم (انظر للتوسع فى هذا عبد الشافى عبد اللطيف المرجع السابق ٣ — ١٩) .

ظلوا يحكمون بعدهم أكثر من خمسة قرون ، وقد وجهوا الكتابة التاريخية فى عصرهم توجيها مناهضا لبنى أمية ، كما أن الشيعة الذين حكموا المغرب ومصر لأكثر من قرنين ونصف كانوا يتحكمون كذلك فى مسار الكتابة التاريخية ..

وأمام هذا الحاجز أغفل المسلمون كتب الحديث التى تتحدث عن جيل الصحابة كله (١٣) ـ وأكثر بناة الدولة الأموية كانوا منه ـ كما أغفلوا نقد المصادر التاريخية كالبلاذرى والطبرى وابن الأثير ، فضلا عن نقد المصادر العلوية المتحيزة اعتمادا على منهج الحديث فى الجرح والتعديل فيما يتعلق بالرواة (الرجال) وعلى نقد (المتن) فيما يتعلق بالوقائع التاريخية ...

وقد أغفلوا كتب المحدثين والفقهاء من أمثال الصحاح الستة ، وكتب أئمة المذاهب الثلاثة عشر كأبى حنيفة وابن حنبل والليث بن سعد وسفيان الثورى،وكتب الفقهاء والعلماء المجتهدين اجتهادا مقيداً مثل القاضى أبى بكر بن العربى ، والإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وغيرهم .

---

(١٣) انظر عبد الشافى عبد اللطيف : مرجع سابق ص ب، جـ .

والسؤدد ، وهو أمر طبيعى ـــ بل أحيانا يكون مطلوبا ـــ فى بيئة تعطى الشرف والسيادة المكانة الأولى .

وكثيرون أسرفوا فى التعميم ، فجعلوا من عروبة بنى أمية (عصبية قومية) فى الإسلام ، مثلما كانت فى الجاهلية (٣)، وهو أمر مبالغ فيه . إلا أن ذلك لا يعنى عدم اعتزاز بنى أمية بعروبتهم وشعورهم بكرم محتدهم وصراحة أنسابهم وانتمائهم لعبد مناف بن قصى ، وهذا هو ما نميل إليه ... وشـــتان بين التعصب والاعتزاز بالأصل والنسب . ولئن كانت قـــد وجدت بعض التجاوزات فى هذا السبيل فقد وجد مثلها عند غيرهم من قبائل العرب . يقول ابن حزم القرطبى :

« وانقطعت دولة بنى أمية ، وكانت دولة عربيـــة ، لم يتخذوا قاعدة ، إنما كان سكنى كل امرىء منهم داره وضيعته التى كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا جمع الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتحويل ولا التسديد ، ويكاتبوهم بالعبودية والملك ، ولا تقبيل الأرض ، ولا رجل ولا يد ، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة مـــن التولية والعزل فى أقاصى البلاد » (٤) .

---

(٣) انظر ـــ مثلا ـــ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بني أمية ص ٦ الطبعة الرابعة بيروت ؛ ومحمد الطيب النجار الدولة الأموية فى المشرق طبع مصر الطبعة الثالثة ١٣٩٧ ص ٥ وما بعدها .

(٤) رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٦٥ / ٣٦٦ من ملحقـــات جوامع السيرة بتحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد طبع دار المعارف بمصر .

بنو أميــة : سيرة شخصية :

بنو أميـــة أقحـــاح من من أصــرح العرب نســبا (١) وجدهم أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ••• والأمية حرب والعـــاص ••• ومن نسل حــرب كان الفرع الأموى الأول (الفرع السفيانى) الذى أسس دولة بنى أمية ••• وحكمها ثلاثة منه هم : معاوية بن أبى ســفيان ، ويزيد ، ومعـــاوية الثــانى •••.

ومن نسل العاص كان الحكم ثم مروان بن الحكم (٢) ومنه كان الفرع الثانى الذى حكم دولة بنى أمية بعد مؤتمر الجــــابية •

وعروبة بنى أمية رشحت بها كل أعمالهم ، وقد أخذوا من الإسلام ما أخذوا ، وهو كثير ، وأخذوا من خصـــائص العروبة ما أخذوا •••

وكان لبنى هاشم بن عبد مناف ــ أبنـــاء عمومتهم ــ صلات وثيقة بهم ، يشوبها لون من التنـــافس على المجــد

---

(١) انظر : ابن حزم : جمهرة انســـاب العــرب ص ٧٨ وما بعدها دار الكتب العلمية الطبعة الاولى ١٤٠٢ بيروت وانظر ابن خلدون العبر ٣/٢

(٢) المكان الســـابق •

ـ وقد كان بنو أمية ـ بصفة عامة وبنسبة لا تتحقق لكثير من الأمم بعد الراشدين ـ عند حسن ظن الأمة بهم... سواء فى مستوى كفايتهم الشخصية أم فى مستوى أعمالهم العـــامة ...

كان فى معـــاوية ميزات قلما توافرت فى بناة الدول ... فهو ممن تحقق فيه شرطا الولاية (القوة والأمانة) .. قال تعالى : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » (٥) ... وقد كان فى الصحابة من هو أتقى منه وأورع منه ديناً وأكثر منه سابقة فى الإسلام ... وعلى والحسن والحسين والزبير وطلحة أزكى منه فى ذلك لا ينكر هذا منكر ولا يمارى فيـــه مسلم .. وسعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر (٦) ، وغيرهم .

لكن معاوية كان أقدر من كل هؤلاء فى صناعة الحضارة وقيادة الأمة ... وليس كل تقى صالح فى أمور الدين الأقدر والأصلح ـ بالضرورة ـ فى أمور الدنيا ... ومعاوية نفسه كان يدرك هذه الحقيقة ... وقد خطب الناس فقال لهم فى تواضع المؤمنين : يا أيها الناس ما أنا بخيركم ، وإن منكم لمن هو خـــير منى (...) ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم فى عدوكم ، وأدركم حلبا (٧) » .

---

(٥) القصص آية رقم ٢٦

(٦) أبو بكر بن العربى : العواصم من القواصم (حاشـــية ٢٠٢) بقلم محى الدين الخطيب .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية (١٣٤/٨) نقلا عن العواصم من القواصم ٢٠٣

ولهذا جمع له عمر بن الخطاب الشامات كلها وأفرده بها لما رأى من حسن سيرته وقيامه بحماية البيضة وسد الثغور وإصلاح الجند والظهور على العدو وسياسة الخلق ، وقد شهد له فى صحيح الحديث بالفقه (٨) .

ونحن نعتقد أن شهادة المسعودى فى معاوية — مع أنه معروف بميوله لآل البيت وتحامله على بنى أمية — هى من أوثق الشهادات وأصدقها ... قال المسعودى : « كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات ، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات ثم يخرج إلى مجلسه (...) ثم يؤتى بالغداء وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء (...) وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية (...) ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ... (٩) » .

وبعد أن ينتهى المسعودى من سرده الذى ذكرنا بعضه ، (ونحيل إليه لروعته ...) يعقب على البرنامج اليومى لمعاوية — رجل الحكم العظيم — فيقول :

---

(٨) أبو بكر بن عربى : العواصم من القواصم ٢٠٣ — ٢٠٥، وانظر عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ص ١٠٧

(٩) المسعودى : مروج الذهب ٣/٤٠

« وقد كان هم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ولا إتقانه للسياسة ولا التأنى للأمور ، ولا مداراته للناس على منـــازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم (١٠) .

وأما الحياة السياسية والإدارية فى الدولة الأموية بعد استقرار الأمور لمعاوية ، فقد نشطت غاية النشاط حتى بلغت سيادة المسلمين أوج توسعها فى خلافة معاوية (١١) بالنسبة لسابقيه ، وقد استعان بعدد من الولاة الأكفاء منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، وعبد الله بن عامر ... وقد كان معاوية ـ بحق ـ رجل دولة يخطط ويعهد إلى غيره أن ينفذ ويطبق ؛ ومن هنا اختار رجال دولته وسياسته ونجح فى هذا الاختيار نجاحاً اعترفت به المصادر التاريخية (١٢) .

وقد أحسن معاوية إلى كبار الصحابة والتابعين وأبنائهم وخاصة بنى هاشم ، كما قام بتوطيد الأمن وباشر أمور الدولة بنفسه إلى حد كبير ، ونشطت الفتوحات فى عهده (١٣) .

* * *

بقى أن نقف عند نقطة أخرى يحاسب عليها (معاوية)

---

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ٤٢
(١١) عبد الرزاق الأنبارى : تاريخ الدولة العربية ٥٨
(١٢) المرجع السابق ١٦٦
(١٣) عبد الشافى عبد اللطيف : مرجع سابق ١١٤

فإذا كان معاوية ــ كما ذكرنا ــ أهلا لأن يلى الخلافة ، وقد أثبت جدارته فيها .. فثمة نقطة ثانية هى أقــل قبولا لدى كثير من الناس ، وهى ترشيحه لابنه يزيد ، كى يلى الأمور بعده ... وهم يعترضون على هذا الترشيح من زاويتين : ــ

ــ زاوية أنه حول الخلافة إلى وراثة وملك عضوض ...

ــ وزاوية عدم جدارة يزيد ، فقــد كان هناك من هم أجدر منه ...

أما فيما يتعلق بقضية تحويل الخلافة إلى ملك عضوض فالحكم فيها يقتضى الرجوع إلى أصول نظام الحكم فى الإسلام، وهل هناك ــ إذا ما استثنينا قاعدتى الشــورى والعدل ــ إلزام بنظام معين ...

وحتى الشورى ــ وهى قاعدة ملزمة ــ هل تتم بطريقة الانتخاب الجماعى أو بطريقة أهل الحل والعقــد أو بطريقة أقرب الناس إلى إمكانية البيعة فى العاصمة ؟

وحتى البيعــة بالإكراه التى يلغيها الإمام مالك ويقول فيها (لا بيعة لمكره) هل تسمح ــ حتى ولو كانت بالإكراه ــ بالخروج الانقلابى الثورى وإحداث الفتن .. ؟ أو تسمح بما هو أقل من ذلك فحسب ، مثل عدم التجاوب والسلبية فى العلاقة بالحــاكم ؟ !!

وعندما بايع المسلمون بعد معاوية ابنه يزيد ولم يبق إلا ثلاثة نفر هم ابن الزبير والحسين وعبد الله بن عمر وأشياعهم هل تعتبر بيعة يزيد باطله ؟ وهل البيعة تقتضى الإجماع أو الأغلبية ؟ .

وفى كل النظم البشرية يخضع توجيه الرأى العام للترغيب والترهيب والضغوط الإعلامية وغيرها ... فهل تعتبر (الديمقراطية) فى نتائجها — باطلة لمجرد هذا الضغط التوجيهى ؟ !! .

إننا إذا استعرضنا ما كتبه الطبرى (١٤) بشأن محاولة أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير فسوف نجد أن الأمور قد عولجت بطريقة خاطئة ، وتطورت — على غرار الفتنة بين على ومعاوية — بشكل لم يكن متوقعا من جميع الأطراف ..

وقد كان محمد بن الحنفية أخو الحسين من أبصر الناس فى هذه الفتنة .. فقد رفض أن يخرج مع الحسين ، وقال له: يا أخى أنت أحب الناس إلى وأعزهم على ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك : تنح بتبعتك عن يزيد ابن معاوية وعن الأنصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا تذهب مروءتك ولا فضلك، إنى أخاف أن تدخل مصرا من هذه

---

(١٤) انظر تاريخ الرسل والملوك ١٩٠/٦

الأمصار ، وتأتى جمـاعة من الناس فيختلفون بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسا وأبا وأما أضيعها دما وأذلها أهلا ، قال له الحسين : فإنى ذاهب يا أخى ، قال : فانزل مكة (...) حتى تسـتقبل الأمور اسـتقبالا ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً (١٥) .

ويروى الطبرى ـ نقلا عن الواقدى ـ أن عبد الله بن عمر لم يكن بالمدينة حين ورد نعى معاوية وبيعة يزيد ، وأن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وعبد الله بن الزبير وهمـا خارجان من المدينة يقصدان مكة فسألاهما مّا وراءهما فقالا: موت معاوية والبيعة ليزيد ؛ فقال لهما ابن عمر (وأيده ابن عباس) : اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين ، ثم إن ابن عمر قدم فأقام أياماً فانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان فبايع ؛ وبايع ابن عباس (١٦) .

إن خروج الحسـين على يزيـد ـ مهما كانت دوافعه النبيلة التى لا نستطيع تجاهلها ـ أمر يحتاج إلى مناقشـة تاريخية وشرعية معاً . وليس من الإنصاف التاريخى أن نبدأ بالحكم قبل هذه المناقشة ، أو أن يكون لدينا جموح عاطفى

(١٥) انظر تاريخ الرسل والملوك ١٩١/٦
(١٦) انظر الطبرى : المكان السـابق ، وانظـر ابن العربى العواصم من القواصم ٢٣١ بتحقيق محب الدين الخطيب .

يحول دون التقويم الموضوعى لمسار الأحداث وظروف القضية ومسئولية أطرافها جميعا فى ضوء مبادىء الإسلام التى كانت تحكم حركة هذا الجيل من الصحابة والتابعين !!

إننا ـ كما يقول القاضى أبو بكر بن العربى ـ لسنا ننكر ، ولا بلغت بنا الجهالة ، ولا لنا فى الحق حمية الجاهلية ، ولا ننطوى على غل لأحد من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ (...) إلا أنا نقول : إن معاوية ترك الأفضل فى أن يجعلها شورى (...)فعدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة وبايعه الناس وتخلف عنها من تخلف فانعقدت البيعة شرعاً لأنها تنعقد بواحد وقيل باثنين (١٧) .

وأيا كان الأمر فلم يكن يزيد كما وصفوه ، بل هو من الطبقة الأولى من التابعين ، وعنه قال عبد الله بن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ... وقد علمه أبوه العدل والإنصاف والتواضع وأرسله لغزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ ، وكان تحت إمرته كبار الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى أيوب الأنصارى ... وهذا الجيش الذى قاده يزيد ـ هو الجيش الذى وعده الرسول ـ ﷺ ـ بالمغفرة حيث قال : (أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور له (١٨) ، وقد شهد له محمد بن الحنفية شهادة صدق ودافع عنه دفاع

---

(١٧) أبو بكر العربى : العواصم من القواصم ٢٢٢ ، ١٤٤
(١٨) ابن كثير البداية والنهاية ٢٢٧/٨

حق ضد خصومه (١٩) كما روى البخارى موقف عبد الله بن عمر من بيعة يزيد ورفضه الغدر بالبيعة (٢٠) .

* * *

أما معـاوية الثـانى فلم يبق فى الخلافـة إلا أربعين يوماً (٢١) ... وكان ورعاً صالحاً رفض أن يوصى بالخلافة من بعده ، وقال : لم أنتفع بها حياً فأتقلدها ميتاً (٢٢) .

وأما مروان بن الحكم فكانت خلافته تسعة أشهر (٢٣) ، ومع ذلك فخلافته نقلت الخلافة من الفـرع السـفيانى إلى الفرع المروانى .

وقـد خلفه - بعهد منه - ابنـه عبد الملك الذى يراه الدارسون - بحق - مؤسس الدولة المروانيـة أو المؤسس الثـانى للدولة الأموية . وبجهود عبد الملك انتهت دولة ابن

---

(١٩) انظر العواصم من القواصم ٢٢٧ ، ٢٢٨ حاشية .

(٢٠) انظر العواصم : ٢٢٤ وانظر د/ عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ١٢٨ - ١٣٠

(٢١) خليفة بن خياط ٢٢٥ ، وابن دقمان : الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين : تحقيق سعيد عاشور نشر مكة المكرمة ص ٦١ ، ٦٢

(٢٢) المكانان السابقان .

(٢٣) انظر خليفة بن خيـاط ٢٥٩ ، وابن الدقمـان الجوهر الثمين ٦٢

الزبير ، وانتصرت الدولة الأموية • واعتبر عام ٧٣ هـ ميلاداً ثانيا للدوله الأموية ولم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه أو ينافقه أو يضيع وقته (٢٤) •

ولئن كان حكم عبد الملك بن مروان قد وحد الدولة الإسلامية وعر بها ، فإن عصور الوليد بن عبد الملك ، وسليمان ابن عبد الملك مثلا عصر الفتوحات الكبرى فى قارات العالم القديم ، ففى آسيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر ، وثبتوا فتوحاتهم فى خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان • وفى إفريقيا فتح الأمويون الشمال الإفريقى برقة وطرابلس وإفريقيا والمغربين الأوسط والأقصى ، وفى أوربا فتحوا شبه جزيرة إيبريا وعبروا ما وراء جبال البرانس ، وحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية (٢٥) •

وكما تجلت عبقرية الأمويين فى الغزو والفتح ، فقد كانت عبقريتهم فى الإدارة والتنظيم والتقريب بين الشعوب التى دخلت فى حوزة الإسلام أعظم ، فبفضل السياسة المرنة ، والأفق الواسع الذى كان يتمتع به الخلفاء الأمويون انصهرت شعوب البلاد المفتوحة — من إيرانيين وأتراك وأرمن وأكراد وبربر — فى بوتقة الإسلام ، لتشكل عالما إسلامياً واحداً ،

(٢٤) عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ١٥١ ، ١٥٢
(٢٥) عبد الشافى عبد اللطيف ٢٣٨

وبفضل مثابرتهم وجهادهم مهـدوا الأرض فى هذه البـلاد لانتشار الإسلام • ومهما كابر المكابرون ، فإن أى منصـف لابد أن يعترف بأن العصر الأموى كان عصرا باهراً فى جميع المجالات وأن بذور الحضارة الإسلامية التى غرست منذ بداية ظهور الإسلام أخذت تنمو وتترعرع فى هذا العصر ، وواصلت نموها وازدهارها حتى وصـلت إلى أوج عظمتها فى العصر العباسى (٢٦) •

وقد وصف الوليد بأنه أكثر الأمويين فتوحات وأعظمهم نفقة فى سبيل الله ، وهو الذى بنى جامع بنى أمية بدمشق ، وعمر مسجد النبى بالمدينة ، وعمل المنابر ، وأغنى المجذمين عن سؤال الناس (٢٧) • كما وصف سليمان بأنه (مفتـاح الخير) وقد أطلق الأسارى وأخلى الحبوس وأحسـن إلى الناس ، وأمر بغزو القسطنطينية ••• وكان رجلا عاقلا ديناً متوقفاً عن الدماء (٢٨) •

وقد أسدى سليمان يداً عظيمة للأمة الإسلامية بجعله ولايـة العهد من بعـده لعمـر بن عبـد العزيز ــ خامس الراشدين !!

فلئن كان عبد الملك قد وحد الدولة وعربها ، ولئن كان الوليد وسليمان قد توسعا فى الفتوحات العسكرية والسياسية

(٢٦) د/ عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ٢٣٨ ، ٢٣٩
(٢٧) ابن الدقمان : الجوهر الثمين ٦٥
(٢٨) ابن الدقمان : الجوهر الثمين ٧٠ ، ٧١

والإدارية والتظيمية ... فإن عمر بن عبد العزيز قد اتجه إلى الشيء الأهم والأعظم والابقى ... لقد بذل كل جهده فى نشر الدعوة الإسلامية فى أقطار الأرض ، فكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن تبقى أملاكهم وإمارتهم بأيديهم ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم وكانت سيرة عمر ومذهبه فى الحكم والحياة قد بلغت هؤلاء ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . كما دفع عمر برسائله ووفوده إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فاستجاب له بعضهم ، كما استجاب له كثير من أهالى تلك المناطق ، فأمر ببناء الخانات كى تكون لهم محطات يأوى إليها الغرباء والمسافرون والمنقطعون ، كما كتب إلى (ليو) الثالث ، امبراطور الروم ، يدعوه إلى الدخول فى الإسلام (٢٩) .

وكان لعمر المنتهى فى العلم والفضل والورع ونشر العدل قدوراً لله ، جدد الله به للأمة دينها ، مقرباً لأهل الفضل يؤثر الدين على الدنيا ، وكان يجمع العلماء والزهاد كل ليلة ، فيتذراكرون الموت حتى كأن بينهم جنازة (٣٠) .

وكانت خلافة عمر سنتين وستة أشهر ، ثم خلفه يزيد بن

---

(٢٩) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ط ٢ الدار العلمية بيروت ص ٨٥ وانظر توماس ارنولد الدعوة الى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ص ١٠٢ طبع القاهرة .

(٣٠) ابن الدقماق : الجوهر الثمين ٧٤

عبد الملك الذى حاول أن يسير سيرة عمر إلا أنه لم يستطع الصمود فى القمة ... مع أن ليزيد بن عبد الملك أختباراً حساناً أتى على ذكرها االمسعودى (٣١) .

أما هشام بن عبد الملك الذى حكم عشرين سنة من عمر الدولة الأموية القصير ، فتجمع المصادر على أنه كان فى خلافته ذا رأى حازما ذكيا عاقلا .. بل محشواً عقلا — حسب تعبير الطبرى — وقال الطبرى أيضا نقلا عن عبد الله ابن على : « جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام (٣٢) وقال : لم يكن أحد من بنى مروان أشد حصراً من أمر أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام (٣٣) .

وأما السنوات السبع الباقية من عمر الدولة الأموية ، وهى التى حكم فيها أربعة خلفاء هم : الوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد ... هذه السنوات كانت سنوات فتنة ... والشخصيات التى حكمت فيها تختلف فيها الآراء ، ولا سيما الوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد ... فبينما يدافع عنهما بعض ، المؤرخين ويرون أن ما قيل فيهما فيه مبالغة ، وأنهما أميل إلى الصلاح

---

(٣١) مروج الذهب ٢١٥/٣ وانظر عبد الشافى عبد اللطيف ١٨٣

(٣٢) الطبرى : التاريخ ٢٨٥/٧ نشر دار الفكر ١٩٧٩ وانظر ابن الدقمان : الجوهر الثمين ٧٨

(٣٣) الطبرى : المكان السابق .

... مع أن ثانيهما ثار على أولهما وقتله ... بينما هذا نجد فى الوقت نفسه من يذهب إلى رميهما ـ ولا سيما الوليد ـ بأقبح الصفات !!

وعلى أية حال .. فإن الدولة الأموية فى هذه السنوات السبع العجاف كانت قد دخلت مرحلة الاحتضار ، ولم تصلح الجهود الكبيرة لمروان بن محمد ـ آخر خلفاء بنى أمية العظام ـ مع كل ما أوتيه من ذكاء وحكمة وشجاعة ـ أن يحول دون السقوط ... لأن كل ظروف السقوط كانت قد توافــرت ، ولم يعد فى قدرة أى فرد عظيم أن يقف ضد التيار !!

بنــو أميــة : تقــويم تاريخى

يقتضى التقويم الصحيح لأية دولة فى التاريخ ــ وصولا إلى معرفة إيجابياتها وسـلبياتها وعوامل تقدمهـا وأسـباب سقوطها ــ إلقاء نظرة (تركيبية) شمولية لدورتها التاريخية ، كما يقتضى تتبعا (تحليليا) دقيقا للسـيرة الشخصية لقادتها والعنـاصر الفاعلة فيها ، وذلك لمعـرفة مـدى كفـايتهـم ومؤهلاتهم ، وهـل كانوا جـديرين بالأماكن التى احتلوها أو كانوا ضعفاء تسببوا بتصدرهم فى إفساد الحياة السياسية والعامة لأمتهم ، وبالتالى إسقاط دولتهم ؟!!

وعند إلقاء نظرة شمولية على الدولة الأموية ، نجد أن هذه الدولة قد عاشت واحداً وتسعين عاما بالتقويم الهجرى (٤١ ــ ١٣٢ هـ) وتسعة وثمانين عاما تقريبا بالتقويم الميلادى (٦٦١ ــ ٧٥٠ م) وهى فترة وجيزة بالنسبة لعمر الدول .

وثمة دويلات لا يكاد يسمع بها فى التاريخ الإسـلامى نفسه مشرقه ومغربه قد عاشت أكثر من هذه الفترة ، ومـع ذلك يبدو سقوطها أمراً عادياً لم يلتفت إليه أحد الباحثين ، وذلك على العكس من دولة بنى أمية التى اهتم بها وبسقوطها كثير من المؤرخين منصفين وغير منصفين ..!!

إن هذه الدولة الأموية قد أخذت مكانتها من دورها فى الفتوحات الإسلامية من جانب ، ولأنها حملت الراية بعد الراشدين من جانب آخر ، ولا رتباطها بالسلف الصالح وعصر الاحتجاج من جانب ثالث ، ولعظمة خلفائها — مهما كانت الآراء التفصيلية حولهم — من جانب رابع .

وهذه الدولة — شأنها شأن الدول التى تقوم فى التاريخ — قد مرت بأطوار ثلاثة :

(أ) الميلاد والانطلاق :

وقد شملت هذه المرحلة فى الفرع السفيانى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وشملت فى الفرع المروانى عهدى مروان بن الحكم وفترة من عهد عبد الملك بن مروان .

(ب) مرحلة الازدهار والفتوحات :

وقد شملت هذه المرحلة جزءاً من عهد عبد الملك بن مروان ، ثم عهود الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد ابن عبد الملك وهشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) .

(حـ) مرحلة الانهيار المباشر :

وهى تبدأ بالوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ —

١٢٦ هـ) وتنتظم عهود يزيد بن الوليد ، (١٢٦ — ١٢٦ هـ) وإبراهيم بن الوليـــد بن عبد الملك (١٢٦ — ١٢٧ هـ) ••• وأخيرا مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) آخـــر خلفاء بنى أمية !!

بيد أن ثمة نوعا من التداخل بين هذه المراحل •• فعهد معاوية مثلا لم يخـــل من فتوحات كثيرة ••• كما أن الدولة كادت تنهار فى فترة معاوية بن يزيد بن معاوية (ربيع الأول — ذو القعدة ٦٤ هـ) ، كما أن عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) إنما دخل فى فترة الازدهار بتأثير الإشـــعاعات القوية التى ســـبقته وفى قمتها عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) والإشعاعات التى جاءت بعده ممثلة فى عهد هشام الذى حاول الحفاظ على مجد الدولة ، ونجح فى ذلك إلى حد كبير !!

وقد تعرض بنو أمية قبل وصولهم إلى السلطة ، وأثناء حكمهم ، لثلاث فتن كبرى كان لها تأثيرها القوى على كيانهم التاريخى ، ولئن كانت الفتنة الأولى بين على ومعاوية ٣٥ — ٤١ هـ قد انبثقت من خلال رمادها ، وعلى أشلاء ضحاياها ، دولتهم ، فمما لا شك فيه أن هذه الفتنة كانت ســـببا فى أن دولتهم قد ولدت ولادة عسيرة ، وأنها ترعرعت — على الرغم مما يمكن أن يكون لديها من القوة العصبية والمتانة الشخصية —

وسط أعشاب ضارة كثيرة ، وفى جو لا يحمل لوجودها وداً ، وليس مستعداً لأن يوفر لها من التعاون والإخلاص أسباب البقـاء ... وكان عليها منذ الميلاد فى عام الجماعة ، أن تجعل مـن هذه الجماعة المحيطة بها جماعة محبة لها متعاونة معها ... وقد بذل معاوية ويزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد وهشام وغيرهم الكثير من الحلم والكـرم فى سـبيل تأليف القلوب المحيطة بهم ، لكن نجاحهم كان نجاحاً موقوتاً ، ولم يستطيعوا استئصال الآثار الناجمة من مرحلة الميلاد العسير الذى تمثل فى الفتنة الأولى .

والحقيقة أن بنى أميـة ـ عند النظـر السـليم ـ لا يتحملون وحدهم وزر الفشل فى هذا السبيل ، بل إن الذين كانوا يصارعونهم ، ويعمدون إلى إحداث الفتن كلما خمدت مثل الشـيعة والخوارج يتحملون ـ أكثر من بنى أميـة ـ الوزر فى هذا الأمر ...

لقد تنفس المسلمون الصعداء عندما سـلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية فى ربيـع الأول من عام الجماعة ... لكـن نفـراً قليـلا من المسلمين ظلوا على ميولهم فى الفتن والثـورات ، ففى العـام نفسـه خـرج عبد الله بن أبى الحوسـاء (١) بالنخيلة من العـراق ، وخرج حوثرة بـن

---

(١) خليفة بن خياط : التـاريخ ... بتحقيق اكـرم ضـياء العمرى نشر مؤسسة الرسالة بيروت الطبعـة الثانيـة ١٣٩٧ هـ ص ٢٠٣

ذراع (٢) بعده ، وخرج سهم بن غالب الهجيمى ومعه الخطيم الجاهلى (٣) • وفى سنة ٤٤ قتل زياد بن أبيه سهم بن غالب بالبصرة (٤) • وفى سنة ٤٩ قتل زياد بالبصرة الحطيم الباهلى الخارجى (٥) ، كما خرج فى ولاية المغيرة بن شعبة فى الكوفة شبيب بن بجرة الأشجعى ، وقتل (٦) • وفى سنة خمسين قتل عمر بن الحمق الخزاعى بالموصل (٧) • وفى سنة إحدى وخمسين قتل معاوية حجر بن عدى ، ومعه محرز بن شهاب وقبيصة بن ضبيعة القيسى ، وصيفى بن فسيل من ربيعة (٨)• إلى غير هذا من صور الخروج التى فرضت على بنى أمية فرضا ، واضطروا لمواجهتها بالقوة ، فأصابوا فى أحيان وأخطأوا فى أحيان أخرى •

وقد كان لتورط بنى أمية فى قتل بعض الصالحين من أمثال حجر بن عدى ، وسعيد بن جبير ، فضلا عن الإمام الحسين رضى الله عنه — مهما كانت الأسباب التى ألجأتهم إلى ذلك (٩) أكبر الأثر فى الحفاظ على الفجوة النفسية التى تفصلهم عن الناس منذ ميلاد دولتهم العسر فى عام الجماعة !!

---

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤

(٣) المكان السابق •

(٤) المصدر السابق ٢٠٧

(٥) السابق ٢٠٩

(٦) المكان السابق •

(٧) السابق ٢١٢

(٨) السابق ٢١٣

(٩) انظر فى أسباب مقتل حجر بن عدى الطبرى حوادث سنة ٥١ ، وابن خلدون : العبر ٣ طبعة مصورة بيروت ١٣٩١

وهكذا كانت آثار الفتنة الأولى (فتنة الميلاد العسر) بالنسبة لمسيرة دولة بنى أمية ــ قوية . وقد ظلت دولة بنى أمية تدفع ثمنها حتى أودت بالفرع السفيانى ... ولولا ظروف قدرية لكان فى إمكان عبد الله بن الزبير أن يقضى على بنى أمية ... فى الفتنة الثانية (... فتنة مقتل الحسين وثورة ابن الزبير) ... فلقد فكر مروان بن الحكم فى الدخول فيما دخل فيه الناس من طاعة ابن الزبير (١٠) ... إلا أن (مؤتمر الجابية) (١١) الذى نجح فى أن يحول دون أول (انشقاق داخلى) فى البيت الأموى قد مكن البيت الأموى بقيادة مروان بن الحكم (١٢) من لم شمله وتجميع قواه واستئناف مسيرته تحت قيادة فرع أموى آخر يمثل دماً جديداً ورئة جديدة وهو الفرع المروانى !!

لقد كان على عبد الملك بن مروان أن يتغلب على آثار الفتنتين : الفتنة الأولى التى قامت على أنقاضها ومن خلل رمادها دولة بنى أمية ، والفتنة الثانية التى قام من بين أنقاضها الفرع المروانى الأموى لكنها خلفت وراءها حركة تهدد وجودها وهى حركة ابن الزبير التى لا زالت قوية عاتية

---

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ٩٤/٣ وعبد الرزاق الأنبارى : مرجع سابق ١٩٢ .

(١١) خليفة بن خياط ــ تاريخ خليفة ص ٢٥٩ وعبد الرزاق الأنبارى مرجع سابق ١٩٤ ، وعبد الشافى عبد اللطيف العالم الإسلامى فى العصر الأموى طبع مصر ١٩٨٥ ص ١٤٣ .

(١٢) انظر فى فضل مروان : ابن العربى العواصم من القواصم طبع بيروت ١٩٧٩ ص ٨٩ بتحقيق محب الدين الخطيب.

... كما كان على عبد الملك أن يواجه فتناً كثيرة تلفعت بأردية مختلفة ، فهذه فتنة التوابين التى انطلقت بتأثير مقتل الحسين ، إذ رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين أنه لن يغسل عارهم ويريح ضمائرهم إلا القيام بثورة يقتلون فيها قتلته أو يقتلون ... وقد تزعم حركتهم سليمان بن صرد الخزاعى ، والتقى بهم جيش عبد الملك بن مروان بقيادة عبد الله بن زياد واليه على العراق وتمكن من هزيمتهم (١٣) .

ولم يكد عبد الملك بن مروان يستبشر بانتصاره على حركة التوابين حتى كان عليه وعلى قادته فى العراق أن يواجهوا — ولمدة تزيد عن عشر سنوات حركات الشيعة ، ومن أبرزها حركة المختار الثقفى ، وفرق الخوارج التى كانت تبحث عن الموت أكثر من بحثها عن الحياة ، ومن أبرز قياداتها فى هذه الفترة صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد الشيبانى الذى توالت انتصاراته ، ولم يقض عليه الحجاج إلا سنة ٧٧هـ(١٤).

وقد استمرت الحروب سجالا بين ابن الزبير وعبد الملك، ولم يستطع القضاء عليه إلا عندما وجه الحجاج إليه سنة ثلاث وسبعين فى مكة ونصب الحجاج المنجنيق وضرب الكعبة (١٥) .

(١٣) خليفة بن خياط ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(١٤) خليفة بن خياط ٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ .
(١٥) خليفة بن خياط ٢٦٩ .

وهكذا وبعد فترة ليست قصيرة وجهود كبيرة تمكن عبد الملك من عبور مرحلة الميلاد الثانى للدولة الأموية ... ولم يعبرها إلا بعد أن أستعان بجبابرة على غرار استعانة معاوية بزياد بن أبيه (ابن أبى سفيان) فى الطور الأول .. فكان المهلب بن أبى صفرة ، والحجاج بن يوسف الثقفى سيفيه البتارين اللذين يلاحق بهما الفتن ، ويعالج بهما الأدواء . ومعروف أن مثل هذا العلاج يترك آثاره على المدى البعيد بالنسبة لمسيرة الأمم ... وما نظن أن هذا كان هو الطريق الحتمى الوحيد أمام عبد الملك ... فثمة طرق للعلاج — يعلمنا إياها التاريخ — كثيرة ، وهى أفضل من طريق السيف !!

لقد لخص عبد الملك منهجه ، فكان أمينا ، ... قال :

إنى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف — يعنى عثمان — ولا الخليفة المداهن — يعنى معاوية ... أيها الناس : إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد راية ولا وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد ، وحقه حقه ، قرابته قرابته ، قال برأسه هكذا ، فقلنا بسيفنا هكذا (١٦) .

ولقد فعل الحجاج بسيفه الكثير فى أهل الكوفة والبصرة (١٧) ... وكان فعله هذا سببا فى اشتعال عدد

---

(١٦) خليفة بن خياط ٢٧٣ .
(١٧) الطبرى : التاريخ ٢٠٦/٧ وما بعدها .

كبير من الثورات ••• ولئن كان عبد الملك قد نجح ــ بالحجاج وأمثاله ــ فى تهدئه الأحوال ، والقضاء على الفتن ، فإنه لم ينجح فى فتح القلوب للفرع الأموى الجديد ، وكان معــاوية أكثر حصافة منه بحلمه وسعة صدره •• ولو لم تتطور الأمور فى عهد يزيد على هذا النحو لربما تغيرت مسيرة التاريخ !!

وعلى أننا نعود فنؤكد أن الشيعة والخوارج ومن ركبوا موجتهمــا يتحملون الوزر الأكبر فى أكثر هذه المــذابح التى وقعت فى العصر الأموى بصفة عامة ، ولقد كانوا ســببا فى فى لجوء حكام بنى أمية إلى ولاة من أمثال زياد والحجاج •• ذلك أن الخروج على نظام الدولة كان أمراً مستهانا به لدى هذه الطوائف ، وكأن العــرب لم يكونوا قد اســتطاعوا أن يتجاوزوا مرحلة القبلية إلى مرحلة الدولة ، ولا سيما بعــد أن حدثت بعض الفتوق فى عروة الإســلام والتقى المسلمون بسيوفهم ، وتحركت فيهم ــ من جديد ــ العصبية القبلية ••

ولقد كان بإمكان بنى أميــة ــ باعتبــارهم العصــبية الغالبة (١٨) امتصاص العصبيات الأخرى بطرق ملائمة لطبيعة العرب ••• إلا أنهــم ــ على الرغــم من كل مابذلوه ــ لم يستطيعوا الوصول إلى نظام الحكم الإســلامى القائم على الشورى والعدل الكاملين ، والذى كان من شأنه أن يفتت على جانبيه هذه العصبيات المحيطة بهم •!!

---

(١٨) انظر بسط نظرية العصبية الغالبة محمد عايدالجابرى: فكر ابن خلدون ــ العصبية والدولة ــ نشر دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢ ص ٢٦٨ .

ومع ذلك ولخصــائص كثيرة يتميز بها عهــد عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان ، ثم عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ... وللسلطات المطلقة التى تمتع بها الولاة الجبابرة ولدخول المسلمين ــ بقوة وإصرار ــ باب الفتوحات الإسلامية على جبهات متعددة بقيادة أبطال عظماء من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير على الجبهة المغربية ، وقتيبة بن مسلم فى خراسان وما وراء النهر حتى حدود الصين ، ومحمــد بن القاسم الثقفى فى السند والهنــد حتى جنــوب البنجــاب ، ومسلمة بن عبد الملك فى آسيا الصغرى ...

لهذه العوامل كلها انشغل المسلمون بما هو أهم من الفتن والثورات الداخلية ، وأفرغوا طاقتهم فى هذا الجهاد الخارجى العظيم ... وكان خلفاء هذا العهد المروانى حتى وفاة هشام (٦٥ ــ ١٢٥) أهلا لأن ينقاد لهم العرب والمسلمون .

فلما توفى هشام كان هذا إيذاناً بدخول الدولة الأموية الفتنة الثالثة والأخيرة ... إنها الفتنة القاصمة ...

لقد وصلت العصبية الأموية إلى قمــة مرحلة الدولة ، وبدأت نفترس نفسها .. وأصبحت أعجز من أن تعقد مؤتمر جابية جديد ترقع به فتوقها ، وتنقل القيادة إلى دم جديد .

إن مرحلة التحدى التى مثلها رجل عظيم مثل معــاوية السفيانى ، ورجل عظيم آخــر مثل عبد الملك المروانى قــد

انتهت ... لقد انتهت الحاجة إلى جبابرة عظمـاء ـ على الرغم من كل أخطائهم ـ ولقد اتسعت رقعـة الدولة بعـد فتوحـات قمم الفتح الإسـلامى الذين عبروا إلى الأندلس ووصلوا جبال البر تات ـ غرباً ـ ووصلوا حدود الصـين وأرغموا ملكها على أن يدفع لهم الجزيـة ـ شرقاً ـ ولقـد خضعت السند والهند ... فماذا بقى فى عالم القرن الثانى للهجرة .. الثامن للميـلاد ؟!! ... وعلى امتـداد الأرض الإسلامية أصبح العرب (أرستقراطية) منتصرة تعيش على (اقتصاد استهلاكى) يأتيها من الغزوات والخراج دون عناء إنتاجى يذكر ... وليس من سبيل هناك إلا الترف واللهو ، أو كما يقول علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون : (حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم (١٩)) ... وسبب ذلك : أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعيم والخصب فى نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم فى ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واسـتظهار الدولة بها (...) وينشأ بنوهم وأعقـابهم فى مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ، ويستكفون عـن سائر الأمور الضرورية فى العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسـالتهم فى الأجيـال بعـدهم بتعاقبهم إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض . وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفنـاء فضـلا عن

---

(١٩) المقدمة : بتحقيق على عبد الواحد وافى ٢/٤٤١ طبع مصر .

الملك ، فإن عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة العصبية التى بها التغلب (٢٠) !!

وهذا العامل الذى قرره العلامة ابن خلدون يحتاج إلى عاملين آخرين يساعدانه على الوصول إلى غايته وتحقيق السقوط ••• وقد توافر العاملان : أما أولهما فكان انحسار الصبغة الدينية التى كانت قادرة ــ كما كانت دوماً ــ على توحيد العصبيات القبلية واستيعابها ، كما أن العرب ومن فى معناهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم (٢١) •

ومع توقف الفتوحات الإسلامية ــ بالإضافة إلى الترف ــ بدأت الغاية الدينية العليا تذوى فى النفوس •

وأما ثانى العاملين : فكان بلوغ الدولة طور الهرم بفساد العصبيات الحاكمة ، وقد لجأت الدولة إلى الاستعانة بالمصطنعين والمرتزقة كما لجأت إلى المصادرات والضرائب • (٢٢) •

ونحن نجد فى مسيرة الدولة الأموية وجود هذه العوامل مجتمعة (وإن كانت عوامل مساعدة وغير اساسية) •• فهناك الترف الذى سارت عليه الدولة وحاشيتها ، وهناك لجوء

---

(٢٠) المقدمة ٤٤١/٢ .
(٢١) المقدمة ٤٥٦/٢ .
(٢٢) محمد عابد الجابرى : مرجع سابق ص ٢٩١ .

الدولة إلى المصطنعين الذين لا يوالــون الدولة إلا لدنيـــا يصيبونها من مال أو منصب ... ولقد خرج على الدولة كثير من رجالها لأنهم لم يرتبطوا بها فكريا ونفسياً ... فقد خرج المختار الثقفى ، وقد خرج محمد بن الأشعب ، وخرج يزيــد ابن المهلب ، ونقم على الدولة عاملها على العراق لخمسة عشر عاما خالد بن عبد الله القسرى الذى عزل وقبض عليه وسجن فى الكوفــة (٢٣) ، وكان مصــير موسى بن نصــير التغريم والسجن ، ومصير ابنه عبد العزيز واليه على الأندلس القتل ، وابنه عبد الله واليه على إفريقية الإهانة والعزل ثم القتــل ، ونهاية قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفى القتل . وقد وصلت هذه العوامل بالدولة إلى مرحلة (الانشقاق الداخلى) وهو أخطر ما يصيب الدولة ، وقد وضح هذا الانشقاق بعد وفاة هشام سنة ١٢٥ هـ .

لقد كانت وصية يزيد بن عبد الملك قد نصــت على أن يتولى الأمور بعد أخيه هشام ابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك .. الذى يقال له (الوليد الثانى) ، وقد حاول هشام إزاحة ابن أخيه إلا أنه لم يستطع ، فحاول إفســاده بدفعــه إلى اللهو والمجون (٢٤) ، ولما عجز عن تقــديم بديل له حــاول إصلاحه ، ولكن بقيت الإشاعات حول الوليد تشوه صورته .

---

(٢٣) نبيه عــاقل : تاريخ خــلافة بنى امية نشر دار الفكر الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ بيروت ص ٣١١ .
(٢٤) المرجع السابق ٢٢٩ .

وعندما ولى الوليد كان ممتلئاً بالحقد على عمه وأبنائه فبدأ خلافته باضطهادهم ، فضرب ابن عمه سليمان بن هشام مئة سوط ، وحلق لحيته ورأسه وغربه إلى عمان ، كما حبس يزيد ابن هشام (٢٥) ... وهكذا بدأ الانشقاق الداخلى يجتاح بنى أمية من الداخل ...

وقد لعب يزيد بن الوليد بن عبد الملك دوراً خطيرا فى تأجيج الفتن حول ابن عمه الوليد ، فقد كان أشدهم فيه قولا (٢٦) . وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك ويتواضع ويقول : ما يسعنا الرضا بالوليد (!!) حتى حمل الناس على الفتك به (٢٧) .

ولم يكن قتل الوليد وتولية يزيد إلا بداية الفتنة ... فإن مروان بن محمد بايع يزيد على مضض لأنه لا يحب الفتنة، لكنه سماه الناقص (بدل يزيد) ــ فى إحدى روايات إطلاق هذا اللقب عليه ــ وفى السنة نفسها ــ كما يقول الطبرى ــ : « اضطرب حبل مروان وهاجت الفتنة » (٢٨) ... وتوالت الأحداث ... فثار أهل حمص ورفضوا البيعة ليزيد « وأقاموا النوائح والبواكى على الوليد » (٢٩) وأعلن أهل الأردن

---

(٢٥) الطبرى ‎/ ٣١٩ .
(٢٦) الطبر ٨/ ٣١٩ .
(٢٧) المكان السابق .
(٢٨) تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٢ .
(٢٩) السابق ٩/ ٢٣ .

وفلسطين خلافهم ، وأسرع نصر بن سيار بالتمــرد ، ودبت الفتنة القبلية بين القيسة واليمنية ، وانقسم البيت الأموى على نفسه ••• يتلذذ بعضه بقتــل بعضه •• وعاجل الموت يزيد فمات فى السنة نفسها (٣٠) سنة ١٢٦ هـ ، وتحرك مروان ابن محمد رافضا ما أظهره بعضهم من بيعته أخى يزيد إبراهيم ابن الوليد ، وتمكن خلال شهرين ونصف ــ وهى مدة ولاية إبراهيم بن الوليد ــ من خلعه وتوطيد الأمر لنفسه •• وهكذا ولى مروان سنة ١٢٧ هـ ، ليبدأ معركة ضارية ضد قوى كثيرة متربصة بالدولة ••• وقد كانت لديه الكفاية لينتصر لولا أن جبهة بنى أمية التى كان الخلفاء قبله يعتمدون عليها كانت قد تمزقت ، وأصبح بأسها بينها ••• ولهذا كان لابد أن يسقط مروان بن محمد ••• وتسقط دولة بنى أمية ، لأن الحبــال كانت قد تقطعت منذ أقدم أموى هو يزيد ، على قتــل أموى هو الخليفة الوليد ، وانقسم بنو أمية بين زعيمين أمويين ••• فتجرأ الناس على دماء بنى أمية ••• بقيادة بعض بنى أمية ••• وكانت النهــاية الضرورية ــ كما يعلمنــا التــاريخ ــ استمرار نزيف الدماء !!

وكانت الفتنة الثالثة ••• الفتنة القاصمة !!

---

(٣٠) خليفة بن خياط تاريخ ٣٦٩

ســقوط بنى أميــة .

أسباب غير أساسية للســقوط

ها نحن قد تعرضنا للسيرة الذاتية لدولة بنى أميــة ، وعرضنا لتقويمهم بصفة إجمالية •••

وقد ظهر لنا ــ بإجمــال ــ ومــن فوق كــل الآراء والاختلافات أن خلفاء بنى أمية تغلب الجادة على حياتهم ، ويغلب شعورهم بالمسئولية ، وصلاحهم والتزامهم بالإسلام وقيامهم بأمر الرعية على مستوى أداء الدولة بصفة عامة ــ !!

وقد وضح لنا من مسيرة الدولة ــ فى سيرة خلفائها وفى تقويمها العام ــ أنها كانت كقطار يمشى على قضبان صحية ، وأنه استطاع أن يعبر بعض العقبات التى واجهته •• لكنه •• فجأة ــ وقع له حادث خروج عن القضبان فانهــار فى ثوان معدودات ••• وهكذا ــ مع وفاة هشام العظيم سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد بن عبد الملك وخروج يزيد بن الوليــد عليه وقتله له ــ وقع هذا الحادث المدمر ••• فالتقى الأمويان بسيفهما ، وقتل خليفة خليفة ، وخرج القطار عن القضــبان

لم يسقط الأمويون لأنهم كانوا جديرين بالسقوط •••
ولم يسقطوا لأن دبيب الفناء كان يدب فى جسدهم منذ تكونت دولتهم ••• كلا •• فإن نبضات الحياة كانت قوية ورائعة فى

معظمهم ••• وقد استطاعوا امتصاص المشكلات التى واجهتهم !!

إن معاوية بن أبى سفيان كان مؤسس دولة من طراز نادر ، وهو لا يقارن الا بنظائره من مؤسسى الدول العالميين ••• وكان نائبا وخليفة الأربعين سنة ••• وذلك فى أصعب فترات البناء للدولة الإسلامية العظمى •••

وقد اقترب عبد الملك بن مروان منه ••• كما ورث العظمة وسار على نهجها الوليد وسليمان وهشام ••• أما عمر بن عبد العزيز فكان أمة وحده ••• وكان مروان بن محمد يتمتع بالشجاعة والإقدام وسداد الرأى (١) •

وإن دولة تعيش إحدى وتسعين سنة هجرية وتحفل بهذا العدد من العظماء الذين تزيد مساحتهم الزمنية — كما ألمعنا سلفاً — عن ثلاثة أرباع عمر الدولة ••• إن دولة هذا شأنها لا يمكن أن تكون دولة ولدت لتموت ، أو أنها دولة تفتقد أهلية البقاء ، أو أن أخطاءها أكثر سوءاً من أخطاء غيرها •••

ولا يكفى قصر عمرها دليلا على هذا الاتجاه ، فإن الدولتين الفاطمية والعباسية — وهما خصوم تاريخيون لبنى أمية — قد عاشا أطول منها ، ومع ذلك فقد كانت أخطاؤهما أسوأ من أخطائها ••• ولم يكن لديهما من العظماء ما يدانى

(١) د/ عبد الشافى عبد اللطيف : مرجع سابق ٢٠٨ •

المستنصر ، أم الخليفة المستعلى (٤٨٧ ـــ ٤٩٥ هـ) أم الآمر (٤٩٥ ـــ ٥٢٤ هـ) أم الحافظ (٥٢٤ ـــ ٥٤٤) أم الظافر (٥٤٤ ـــ ٥٤٩ هـ) أم الفائز (٤٥٩ ـــ ٥٥٥ هـ) أم آخر الخلفاء وهو العاضد (٥٥٥ ـــ ٥٧٦ هـ) (٤) .

فهذا قرن كامل كان الفاطميون فيه ألعوبة وليس لهم من الأمر شىء ومع ذلك فإن أية دراسة نقدية لشخصيات الخلافة الفاطمية سوف تكشف عن هبوط كبير فى الرصيد التاريخى الإيجابى لهؤلاء منذ بداية دولتهم وحتى نهايتها ـــ بصفة إجمالية !!

(فعلى امتداد ستة عقود (٢٩٨ ـــ ٣٦١ هـ) حكموها فى المغرب ـــ والأكثر من قرنين حكموها فى مصر ـــ فقد نشروا من الخرافات والبدع مالا أصل له فى كتاب ولا سنة ولجئوا ـــ هم ودعاتهم ـــ إلى ضروب من الحيل والدجل لإقناع الناس بهم وبدعواهم .. وهى ضروب لا يمكن أن تصدر عن ناس ينتسبون إلى أهل البيت . وإنما هم ـــ كما ذكر على ابن الفضل أكبر دعاة الشيعة فى اليمن ـــ مثله تماما ... مفترسون لشاة الدنيا . طلبوها من غير طريق ... وإن من يتصفح حياة داعيهم الأكبر ومؤسس دولتهم أبو عبيد الله الشيعى ، ويجد عشرات الحيل التى خدع بها كتامة وما تظاهر

---

(٤) حسن علي حسن : المكان السابق .

عظماء بنى أمية — حتى من الناحية الكمية فضلا عن الكيفية — وقد عاش حكام كثيرون — وهذا مجرد مثال — أضعاف حياة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، ومع ذلك فإنهم لم يتركوا آثاراً يمكن أن تقارن بأعمال هؤلاء ... فقصر العمر — فى حد ذاته — ليس دليل إدانة مبدئية لدولة بنى أمية ، وهو على مستوى الأفراد والأمم ليس دليل إدانة أو ضعف .

لننظر على سبيل المقارنة فى سلسلة خلفاء الفاطميين ، ولنقارنهم بسلسلة خلفاء بنى أمية (٢) ... لقد عاش بنو أمية (٩١) سنة ... ثم سقطوا كباراً ... فى عهد خليفة أموى كان عظيما أيضا وهو مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) ... بينما عاش الفاطميون نحو (٢٧٠) سنة (٢٩٧ — ٥٦٧ هـ) أى ثلاثة أضعاف الأمويين ... ثم سقطوا وهم لا يملكون من الأمر شيئا فى عهد خليفة فاطمى ضعيف هو العاضد لدين الله عبد الله أبى محمد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) (٣) .. ويصرح الدكتور حسن على حسن — وهو محق — بأن القرن الأخير من العصر الفاطمى (٤٦٦ — ٥٦٧ هـ) لم يكن يملك فيه الخلفاء الفاطميون شيئا ، فقد سيطر الوزراء على مقاليد الأمور وأصبح الخلفاء ألعوبة فى يد الوزراء ، سواء فى عهد

---

(٢) انظر الملحق ١ ، والملحق ٢ فى نهاية البحث .

(٣) انظر دراسة جيدة عن العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين للدكتور حسن على حسن — مجلة كلية العلوم الاجتماعية الرياض العدد الثانى ١٩٧٨ م .

به من علم الغيب ـ ليستبعد استبعاداً كاملا أن يكون هؤلاء من أهل البيت) (٥) .

ويقول ابن كثير الدمشقى المؤرخ : « إنما حمل القرامطة على الاعتداء على الحرم واقتلاع الحجر الأسود أنهم كفار زنادقة ، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا بإفريقية ويلقب أميرهم بالمهدى ، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح ، وقد كان صباغاً بسلمية ، وكان يهودياً فادعى أنه أسلم ، ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية ، فادعى أنه شريف فاطمى فصدقه على ذلك كثير من البربر وغيرهم من الجهلة وصارت له دولة ، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويدعون إليه » (٦) ..!!

وقد كان للفاطميين من العادات والتقاليد التى يلتزم بها الحكام مع الرعية ما يوحى بأنهم أكثر من بشر . وكانوا يلزمون المتصلين بهم بأسلوب فى المعاملة الخاضعة الذليلة لا تليق بعلاقة الإنسان المسلم بأخيه المسلم حاكما كان أو محكوما .

وقد كانت لهم جرأة كبيرة على التنكيل بمخالفيهم بأفظع

---

(٥) د/ محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ١٣٩٦ هـ ص ٧٣ طبع مصر .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١١ ـ ١٦١ حوادث سنة ٣١٧ هـ .

الوسائل ، كما أنهم كانوا من أجرأ الناس ـ وبأقبح الأساليب ـ على سب صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ ، فضلا عن قدرتهم على انتحال البدع التى لا صلة لها بالإسلام • وإلزام الناس بها وكأنها من شرع الله •

ومما روى أن أحد فقهاء المالكية فى المغرب ويدعى (جبلة) ترك رباطه بقصر الطوب وأقام فى مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ••• كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى ها هنا ؟! فقال : « كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذى قد حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم (٧) » !!

وقد عرفت مصر فى العهد الفاطمى من الشدة والضيق ما لم تعرفه فى عصورها كلها ، وإن ما يعرف بالشدة المستنصرية وحده لكفيل بإبراز هذه الحقيقة ••• وإن حوليات هذه الفترة التى حكم فيها المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) لحافلة بأبشع صور الضيق التى أطلق عليها (الشدة العظمى) والتى أكل فيها الناس بعضهم بعضا ، وأكلوا أولادهم ، وأكلوا الحمير ، والكلاب ، وبيع الرغيف بمائة دينار ••• وإن ما أنفقوه على المظاهر والأحفال والمزارات والقصور ـ من

(٧) رياض النفوس (الجزء المخطوط) نقلا عن د / أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩٨ نشر الإسكندرية .

مال الأمة — ليس دليلا على الرخاء بل هو دليل على السفه والاستغلال البشع والنظر إلى أموال الأمـــة على أنها أموال لهم • ولمن يقدسهم ويتبرك بهم ويؤمن (بحقهم الإلهى) فى التصرف فى الأمة ، تصرفا أقرب ما يكون إلى (البابوية) فى العصور الوسطى !!

هذه هى دولة الفاطميين التى حكمها — مثـــل الأمويين تماما — أربع عشرة خليفة ، وعاشـــت ثلاثة أضعافهم ••• فماذا أفادها طول عمرها ؟ وماذا أفاد المسلمين هذا العمـــر الطويل ؟

وكم من معارك خاضها الفاطميون لصـــالح الإســـلام والمسلمين ؟! وما الفتوحات التى فتحوها ؟ ودعك من معاركهم وحروبهم الباردة ضد الأمويين فى الأندلس التى اســـتمرت طيلة وجودهم فى المغرب (٢٩٧ — ٣٦١ هـ) وامتصت جانبا كبيرا من جهود الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وجعلته يعقد العهود والتحالفات مع ملوك أوربـــا لأن جبهته الجنوبية مشغولة بحرب لا تنتهى مع الفاطميين ، وهو لا يستطيع أن يحارب فى جبهتين ، وكذلك كان حال ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) •

كذلك يجب أن لا ننسى حروبهم ضـــد العباســـيين ، ودورهم فى إضـــعاف هذه الخلافة ، ولقد كادوا يســـقطونها لولا ظهور قوة السلاجقة •••!!

فباستثناء حروبهم ضد أهل السنة ــ أمويين فى المغرب، وعباسيين فى المشرق لا نكــاد نجد لهم حروبا ضــد أعــداء الإسلام ، على أن حروبهم ضد أهل السنة لم تنتــه قط إلا بظهور الصليبيين ، وبروز نجم نور الدين محمود وعماد الدين زنكى ثم صلاح الدين الأيوبى الذى رفض ضغوط نور الدين محمود فى إسقاط الخلافة الفاطمية فور دخوله مصر ، وإن كان قد اتخذ خطوات لإسقاطها مثل عــزل قضــاة الشــيعة وإبطال الأذان الشيعى وهدم ســجون الشــيعة التى كانت مقامة للسنة ، والدعوة على المنابر للخلفاء الراشدين (٨) .. وعندما مات العاضد كانت مصر قد تحولت رسمياً إلى السنة، وإن كانت ــ شعبياً ــ لم تكن قد فقدت سنيتها قط ، وقاومت الفاطميين طيلة تاريخهم ، ودفع شعبها ثمن ذلك محناً كثيرة على يد جبابرة الفاطميين !!

إن طبيعة رجال الدولة الأموية فى المشرق كانت تتــأبى على هذا الدور الهزيل الذى رضيه لأنفسهم كثير من خلفــاء الفاطميين وبنى العباس ، وبالتالى فعندما نقول : دولة بنى أمية فإن ذلك يعنى أن الأمويين كانوا يحكمون فعلا ، وأنهم لم يكونوا ظلا لوزراء أو حكام آخرين !!

وحتى الجبابرة الذين ظهروا فى بعض فتراتهم كالحجاج

---

(٨) حسن على حسن : المكان السابق .

ابن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه لم يحاول أحدهم أن يقترب من منصب الخلافة ، بل كان يعرف قدره ، وقد هدد عبد الملك ابن مروان الحجاج وسبه غير مرة (٩) .

ويؤكد (فلهوزن) هذه الحقيقة عندما يصرح بأن مسلك عبد الملك من الحجاج كان مسلك السيد الآمر (١٠) .

ومع ذلك فإن يوليوس فلهوزن يتناقض مع نفسه ، ويكشف لنا ــ بتناقضه ــ عن بعد آخر يستحق أن نقف عنده ، ففلهوزن يرى أن أصل الأمويين لا يجعلهم أهلا لقيادة الأمة المسلمة ، لأن من السخرية بفكرة الحكومة الثيوقراطية أن يظهر الأمويون ممثليها الأعلين ، فهم كانوا مغتصبين وظلوا كذلك ولم يكونوا يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة ، ولكن قوتهم لم تستطع قط أن تصير حقاً شرعياً (١١) .

فعلى الرغم من أن فلهوزن يؤكد القوة الشخصية لبنى أمية إلا أنه يسلبهم جدارة القيادة اعتماداً على صعوبة تمثيلهم للحكومة الثيو قراطية .

---

(٩) منها عندما كلم أنس بن مالك كلاما شديدا فسبه سباً مقذعاً وجعله يعتذر لأنس .

(١٠) تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادى أبوريدة نشر القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٤٣ .

(١١) المرجع السابق ص ٥٩ .

ونحـــن لا ندرى من أين (لفلهوزن) بفكـــرة الحكومة الثيوقراطية هذه ؟

ومن قال له إن حكم الإســـلام حكم ثيوقراطى ؟ فمثل هذا الحكم البابوى الكنسى ليس من الإسلام فى شىء ، ومن حق كل مسلم صالح جدير بالحكم أن يكون حاكما إذا وضعته الظروف فى هذا الموضع ، أو أملت عليه الظروف ذلك ، وحق قريش مقدم إذا توافرت فيهم الكفاية ، أما إذا عدموا الكفاية فإن غيرهم أجدر وأولى ... وتلك بديهية من بديهيات النظام السياسى الإسلامى .

وإن تنازل الحســـن بن على لمعاوية وإجماع الأمـــة فى (عام الجماعة) سنة ٤١ هـ ، على معاوية يجعل من الأمويين أصحاب (حق شرعى) ما أدوا الأمانة وقاموا بها .. ويجب أن يحاكموا إلى جدارتهم وسلوكهم لا إلى هذا الحق الشرعى الذى يشير إليه فلهوزن ... وحتى أصحاب الحق الشرعى إذا خانوا شريعة الإسلام فإنهم يفقدون أهليتهم للحكم ..!!

* * *

ويتصل بما يقوله فلهوزن قضية أساسية جنح إليها كثير من الذين تحدثوا عن بنى أمية وعن سقوطهم ، وهى قضـــية تقترب من نظرية الحق التى ذهب إليها فلهوزن .

فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن تغيير نظام الحكم من خلافة راشدة إلى ملك وراثى ، ومن نظام يقوم على أساس الأمة إلى نظام يقوم على أساس (الدولة) كان وراء سقوط الدولة الأموية .

يقول القاضى سعدى أبو حبيب فى نهاية دراسته عن (مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية) :

« نحن نرى أن السبب الحقيقى الهام الذى أدى إلى تقويض الحكم الأموى بدأ منذ معاوية واضع اللبنة الأولى فى صرح ذلك الحكم ، وأخذ يتفاقم ويتفاقم ... ولئن خفف من تأثيره فى الصدر الأول قوة الخلفاء وشدة سيطرتهم وحزمهم حتى آل الأمر إلى هشام بن عبد الملك فإنه عاد إلى الظهور فى عهد من جاء بعده من الخلفاء لانعدام تلك القوة (...) فما هو هذا السبب ؟ هذا السبب يتمثل فى ابتعاد الحكم الأموى عن نظام الحكم فى الإسلام الذى يجعل الناس سواء لا فرق بين غنيهم وفقيرهم (...) ونحن نقول ونؤكد — أى القاضى سعدى — إن الطابع العام للحكم الأموى لا يأتلف مع الحكم الإسلامى ... فى نظام الحكم الأموى الكلمة الأولى للدولة أولا ... وبعبارة أدق لمصلحة البيت المالك ثم الإسلام » (١٢) .

أى أن هناك خلافاً جوهرياً — كما يدلنا كلام القاضى

(١٢) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية : طبع دار لسان العرب ص ١٥٤ .

سعدى ــ أبعد الخلافة الأموية عن الإسلام فى نظام الحكم سواء فى مستوى أسلوب الحكم الذى أصبح يتعصب « للدولة » وعصبياتها لا للأمة فى مجموعها ، ويعامل الناس حسب رتبتهم فى الولاء للدولة لا رتبتهم فى الولاء للدين ، وكذلك فإن نظرة الأمويين للحكم تختلف عن نظرة الراشدين حيث سيسود سلطان الفرد ويصبح الخليفة ظل الله فى الأرض (١٣) .

ويتجه إلى هذا الرأى الدكتور عبد الجبار منسى العبيدى فى بحثه الرصين : (قراءة جديدة فى أسباب سقوط الدولة الأموية) حيث يقيم قراءته الجديدة فى أسباب سقوط بنى أمية على أساس الصراع بين نظرية (الأمة) التى يمثلها على ، والتى هى النظرية الإسلامية ــ حسب تعبيره ــ وبين نظرية (الدولة) وهى النظرية الطارئة على طبيعة الحكم الإسلامى (١٤) (...) ويرى الباحث أن مطالبة معاوية بدم عثمان كانت على ما يبدو مطالبة سياسية أكثر منها مطالبة بدم الخليفة المقتول (...) وأن معاوية كان يرى الدولة بمنظار آخر غير الذى يراه الخليفة على وأصحابه ومن هنا كانت مطالبته بالحكم (١٥) .

---

(١٣) انظر المرجع السابق ص ١٥٥ .
(١٤) عبد الجبار منسى العبيدى : قراءة جديدة فى اسباب سقوط الدولة الأموية : دراسة بمجلة عالم الفكر العدد ٣/ المجلد الخامس عشر الكويت .
(١٥) المكان السابق .

ويرى — أيضا — أن مجيء الأمويين للسلطة قد غير الصورة الحقيقية للدولة تماما ، وخاصة بعد أن غير معاوية الأمر وجعله وراثة فى بيت بعينه ، وتمكن من نقل الدولة إلى نظام يقوم على أساس التوريث مع المحافظة على شكلية البيعة العامة والخاصة للمسلمين ، وبذلك أصبحت الخلافة — كما يقول الباحث — أقرب إلى السياسة منها إلى الدين ، بعد أن جعلوها ملكالهم (١٦) •• وهكذا فإن نقل الخلافة إلى الأمويين وبالصورة التى نقلتها لنا المصادر ، وبدون إشراك رأى الأمة بشكل حقيقى وفعال أحدث تغييراً ونقلة كبرى فى مسار الخلافة الأموية ظهرت آثاره فيما بعد فى ضعفها وتدهورها وبالتالى سقوطها وانتهائها •

إن هذين الرأيين ليسا نشازا فى الحديث عن أسباب سقوط بنى أمية ••• بل هما — فى الواقع — نغمة مكرورة فى القديم والحديث ••• وإنما سقنا رأى هذين الباحثين لوقفتهما المتخصصة عند قضية سقوط دولة بنى أمية !!

بيدأننا لا نتجه هذا الاتجاه ، ونرى أن البحث العلمى يفرض علينا عند دراسة أى تحول فى التاريخ الإسلامى أن ننظر فى هذا التحول على ضوء مقياسين أساسيين :

---

(١٦) المكان السابق •

أولهمــا :

مدى مطابقة هذا التحول ، ومطابقة مسيرته ، لمبــادىء الإسلام السياسية الصريحة •

ثانيهمــا :

ظروف الواقع والتطور التى تحكمت فى هذا التحول ، ولربما تكون قد أملته •

وبالنسبة للمقياس الأول نرى أن القول بحدوث تغيير فى نظام الحكم والانتقــال من الخلافة الراشــدة إلى الملك الوراثى إنما هو أمر واقع لا يملك أحد الشــك فيه ، لكــن القول ــ أو الفهم ــ بأن هذا الانتقال كان ســبب تدهــور الدولة الأموية وسقوطها ••• وأنه ــ أساساً ــ صراع بين نظرية إسلامية هى نظرية (الأمة) ونظرية غير إسلامية هى نظرية (الدولة) هو ما نشك فيه !! (وقد ناقشنا) هذا الأمر من قبل) ــ ومع ذلك فإن هذا القول ــ أو الفهم ــ يفترض ــ سلفا ــ حصر النظرية السياسية الإسلامية فى نطاق أسلوب الحكم الراشدى ••• وبالطبع فإن كل مسلم يتمنى أن يرتفع الحكم ــ فى كل مراحل التاريخ الإسلامى ــ إلى مســتوى الراشدين ••• لكن بما أن هذا غير ممكن ، ولا يتساوق مــع طبيعة التقلبات البشرية والتفاوت الذى يقوم بين البشر ــ فإن القول بأن ما دون مســتوى الراشــدين هو حكــم غير

إسلامى ، وهو نظـام لا ينسـجم مع النظرية السـياسية الإسلامية ، هو قول فيه نظر ويحتاج إلى تمحيص ، بل هو مأزق وقع فيه كثير من المفكـرين والمؤرخين ... لأن هـذا المنحى ــ فضلا عن كونه مخالفاً للنظام السياسى الإسلامى المرن الذى يجمع بين الواقعية والمثالية ــ فهو أيضا إدانـة ضمنية للتاريخ الإسلامى ــ فى معظمه ــ إذ أن كثيرا مـن أحقاب هذا التاريخ لم تسـتطع أن ترتفـع إلى مسـتوى الراشدين ، أو تلتزم بأسلوبهم فى الحكم ، وبما أننا نرى أن مستوى الراشدين ، مستوى قمة تشريعية محددة تعيش ألقا معيناً يصعب الارتباط به على سـواد النـاس ، لذلك فنحن نرى أن كثيراً من حقب التاريخ الإسـلامى كانت إسـلامية وإن اختلفت فى الدرجة .

ومعروف أن فقهاء الإسلام يرون أنه لا يوجد نظام محدد فى الإسلام للحكم ، لأن هذا النظام المحـدد من شـأنه أن يكون جامداً وأن يتعارض مع صلاحية الإسلام لكل زمـان ومكان ، وإنما هناك أصول لهذا النظام هى : الشورى والعدل، وهناك ــ بعد ذلك ــ شروط يجب أن تتوافر فى الحـاكم ، وشريعة تحكم هذا الحاكم ويحكم هو بها الناس !!

ومن الواضح ــ كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد شلبى ــ أن القرآن الكريم لم يفصل المشـكلات الخاصـة بالحكومة الإسلامية ، لأن الحكومة وطرق اختيارها ومسئوليتها وعزمها وغير ذلك لمـا يختلف باختـلاف الأزمنـة والأمكنـة ، ومن أجل ذلك تكلمت المصادر الإسلامية الأولى عن الحكومة

الإسلامية بالإجمال ، وتركت التفاصيل ليضعها البشر بما يلائم حاجتهم فى حدود الإطار العام الذى رسمه الإسلام (١٧) •

وإذا ما لجأنا إلى الحديث النبوى لمعرفة ما لم نعثر عليه فى القرآن الكريم عن وضع المسلمين السياسى نجد بعض الأحاديث تذكر كلمتى الخلافة والإمامة فى قريش (الأئمة من قريش) — وهذا عند وجود قرشى صالح بالطبع!! وقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله — ﷺ — يقول : « إن أحب الناس إلى الله وأدناهم منه مجلساً يوم القيامة إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » •

ولا يهتم الإسلام بالألقاب التى تمنح لأعضاء الحكومة ، وقد عرف فى الإسلام لقب الخليفة والإمام والسلطان للرئيس (•••) ولا بأس من استعمال هذه الألقاب أو غيرها مما يمثل طبيعة العمل الذى يقوم به كل أعضاء هذه الهيئة ، والمهم فى الإسلام هو اجتماع هذه الشروط (شروط الحاكم : الإسلام والبلوغ والعقل والقوة والعلم والفطنة والعدالة وسلامة الحواس وحسن سير العمل) ، أما الألقاب فليست مما يحرص عليه التفكير الإسلامى (١٨) •

---

(١٧) الإسلام : ص ٢٥٧ الطبعة السابعة طبع مكتبة النهضة المصرية مصر ١٩٨٣

(١٨) المرجع السابق ٢٦٠.

ويرى الأستاذ أنور الرفاعى أن انتخاب الخلفاء الراشدين ــ مع بعض التحفظ ــ قام على الشورى (التى هى دعامة أساسية فى نظام الحكم الإسلامى) إذ حصل فى انتخابهم جميعاً ترشيح ومشاورة وقبول أكثر الزعماء المسلمين ثم موافقة سائر الأمة (...) وإذا وجد معارضون ومخالفون ومستنكفون فهو أمر طبيعى إذ نلاحظ فى عصرنا هذا مثل ذلك أو أشد منه لما يجرى فى انتخاب رؤساء الجمهوريات (١٩) !!

وعن الخلافة زمن الأمويين يقول الرفاعى : « لما انتقلت السلطة إلى الأمويين أصبحت الخلافة ملكاً استبدادياً آل إلى أصحابه بقوة السيف والسياسة والمكايد ، وبذلك تبذل نظام الخلافة ، فبعد أن كان يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين أصبح يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولا والدين ثانياً وأدخلت كل مظاهر الأبهة التى تمتع بها الملوك والقياصرة (٢٠) .

ومع تحفظنا على بعض تعبيرات المؤلف ، فالحكومة الأموية ــ كما ذكرنا فى ثنايا هذا البحث ــ كانت تتسم بكثير من التواضع والبساطة والخضوع للدين وخدمة الرعية كلها بإخلاص وليس الموالين فقط ــ إلا أننا نوافقه على بعض ما قاله ...!!

---

(١٩) النظم الإسلامية نشر دار الفكر دمشق ١٩٧٣ م ص٣٥
(٢٠) المرجع السابق ٣٥

وقد كان المستشرق (ها ملتــون جب) أكثر اســتيعاباً لحقيقة النظام الذى طبقه الأمويون عندما أشار إلى طبيعــة الحكم الأموى فى قوله :

« ولعله من قبيل التناقض أن يلصــق الناس بالأمويين تلك التهمة الشائعة ، وهى أنهم حولوا الخلافة إلى ملك ، مع أنه لم يحدث أن مارس أموى مثل تلك السلطة الشخصية التى مارسها العباسيون الأول أو ظهر بمثل تلك الأبهة الملكية التى ظهورا بها . وهذا التناقض ذاته يوحى لنا بأنه ينبغى علينــا إذا شئنا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للأزمة ـــ أن ننفذ إلى ما دون سطح الوقائع بكثير (٢١) .

ومن الجدير بالذكر أن الفقيه ابن حزم الأندلسى والفقيه ابن تيمية ، ... وتلميذه ابن القيم ، والعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، وجمهور فقهاء المسلمين ، كلهم قد نظروا إلى خلافة بنى أمية على أنها خلافة شرعية إسلامية حتى وإن أخذوا عليها بعض المآخذ ، ولم يروا أنها فقدت شرعيتها لمجرد أنها تغيرت عن مستوى عهد الراشدين ، أو لأن خلافاً وقــع بين مؤسسها وبين الإمام على ابن أبى طالب ، كما أنهم يرونها أفضل خلافة ـــ بعد الراشدين ـــ ظهرت فى تاريخ الإسلام .

ولسنا نرى وجود صراع بين نظرية الأمة والدولة ..

---

(٢١) دراسات فى حضارة الإسلام : ترجمة إحســان عباس وآخرين نشر دار العلم للملايين بيروت الطبقة الثالثة ص ٤٨

بل نرى أن الأمـــة يمكن أن تتكيف مـــع الدولة فى ظـــل قيم الإسلام ، وقد تصلح الأمة فى ظروف تاريخية ، وتجب الدولة فى ظروف تاريخية أخرى ، بل قد يتعاصران حســـب ظروف الأمكنة ••• ولقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعيش فى ظل (أمة) مسلمة ••• وينام فى الطريق العام ، ويدخـــل إليه الناس دون حجاب ••• وفى الوقت نفسه كان أميره على الشام معاوية بن أبى سفيان يعيش فى ظل (دولة) وله حجابه ومظاهره ••• ولم ينكر الخليفة على واليه سلوكه بعـــد أن عرف الظروف ••• وإلا لقام بعزله وتعنيفه !!

بيد أن الانتقال من نظام (الأمة) إلى نظام (الدولة) كان أمراً أملته الظروف والتطورات العامة للأمة الإســـلامية بعد أن ورث المسلمون أقوى دولتين فى العصر الوسيط ••• وبالتـــالى فإن محاكمـــة الدولة الأموية ــ كتحـــول تاريخى إسلامى ــ إلى هذا المقياس ، سوف يجد الكثير من التبريرات لهذا التحول ••• بل إننا نكاد نشعر بأن هذا الانتقـــال كان ضرورة ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الخلفاء الراشـــدين الثلاثة قد عانوا الكثير من جراء البساطة التى انتهجوها ، ودفعـــوا حياتهم ثمنا لهذا ، وكان لزاما أن يظهر أسلوب يجمـــع بين (الدين والأمة والدولة) فى نسيج واحـــد ••• وقـــد كان الأمويون السباقين إلى هذا الأسلوب ، وإن كان الكثيرون لم يفهموا ضرورة هذا التطور وأبعـــاده ، ووقفوا من الأمويين موقف العداء الثابت ولاء منهم للنظام الراشـــدى المثـــالى العظيم •!!

وأكبر دليل نقدمه للدفاع عن رأينا هذا هو أن كل الذين قاوموا الدولة الأموية وورثوها ، وجاءوا فى التاريخ بعدها لم يستطيعوا أن يعودا إلى نظام الراشدين أو إلى نظام (الأمة) حسب تسمية بعضهم ... بل بقى نظام الدولة ثابتا : بل تدعم بمظاهر كثيرة بعضها ليس إسلاميا ، فقد اتجه الشيعة خصوم الأمويين الأول إلى تقديس الائمة وإلى القول بعصمتهم ، وآمنوا إيماناً مطلقاً بنظام وراثى أكثر مغالاة واستبداداً من نظام الأمويين ، فهم يرون أن تكون الخلافة فى بيت النبى ، ويشبههم بعضهم بأصحاب النظرية الإلهية (٢٢) .

وقد قامت دولتهم فى التاريخ الإسلامى على نظام لاعلاقة للشورى به ، وقد نظر إلى الأئمة العبيديين والأدارسة قبلهم نظرة تقديس لدرجة أن بعض أئمة الأدارسة ولى وهو فى بطن أمه !!

أما العباسيون الذين أسقطوا بنى أمية ، فقد حذوا حذو الأمويين ، وبما أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس فقد سرب الفرس إليهم نظرية استمداد الحكم من الله والحق المقدس (٢٣) .

بل إنه لمن الطريف أن الخوارج الذين تقوم ثوراتهم وفتنتهم فى التاريخ كله ، وضد الأمويين بخاصة ، من أجل أن

---

(٢٢) أنور الرفاعى : النظم الإسلامية ص ٣٠
(٢٣) المرجع السابق ٣٦

يقوم الحكم الإسلامى على الشورى ويكون حقاً ــ غير وراثى ــ لكل مسلم ، لدرجــة أنهم لقبــوا بالجمهوريين لمبادئهــم الديمقراطية المتطرفة (٢٤) .

الطريف أنه عندما قامت لهم (دول) قامت ــ أيضا ــ على النظام الوراثى ونظــام الدولة ... فدولة بنى رســتم الخارجية الإباضية فى المغرب الأوسط توارثها أبناء عبد الرحمن ابن رستم ، ودولة بنى واسول (بنى مــدرار) الخارجيــة الصــفرية فى سجلماسة توارثها أبنــاء أبى القاســم بــن مدرار (٢٥) .

* * *

* أجل : لقد كان ثمة تطور يوجب الوصول إلى نظام شمولى يجمع بين الأمة والدولة فى إطار الشريعة وفق نسيج متناغم ، فلم يعد أسلوب البساطة قادراً على مواجهة التحديات والتقلبات ... وكان على الأمة أن تدرك أعماق هذا التطور ، وأن تعالج سلبيات الحكم الأموى وتتعــاون معه بدلا مــن الوقوف ضده والثورة عليه ودفعــه دفعــاً إلى الاســتعانة بالجبابرة من أمثال الحجاج الثقفى وزياد بن أبيه ... لكن الطوائف أو الفرق التى ظهرت عجزت عن إدراك هذا الحل ...

---

(٢٤) المرجع السابق ٣٠

(٢٥) انظر أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس طبع الإسكندرية ص ١٩٨ وما بعدها .

واستسهلت الصدام بالأمويين وسفك الدماء ورأت أن هـذه الدماء تبرئ ذمتها ...!!

ومن الجدير بالذكر أن معاوية لم يستحدث نظاما جديدا فيما يتعلق بالأبهة والمظاهر ... بل كان بسلوكه استمرارا لسلوكه أيام ولايته فى عهد عمر بن الخطاب ... فكأنه كان من ضرورات حكمه فى الشام (وريثة امبراطورية الروم) أن يلجأ إلى هذا الأسلوب ... وقد بقيت الشام قلعة الأمويين وظلت دمشق ــ غالباً ــ عاصمتهم ...!!

ويبرر الدكتور عبد الجبار منسى العبيدى هذا التطور ــ مع أنه ابتداء قد عزا إليه سقوط الدولة كما ذكرنا ــ فيقول :

ويبدو أن مجمل الظروف السياسية والاجتماعية هى التى فرضت هذا التطور فى نظرة الأمويين للحكم بعد أن انتقلت الخلافة إليهم وفى ظروف صعبة للغاية . فمجتمع الجزيرة العربية ، وخاصة مجتمع المدينة هو مجتمع بدوى يأنف من أن تحكمه سلطة مركزية ، إذ لابد أن يشارك فى النظام السياسى الذى يخضع له ، أما مجتمع الشام فهو مجتمع حضرى مستقر ، ومثل هذا المجتمع يركن إلى النظام الملكى المستقر ، ناهيك أن معاوية قد مهد لمثل هذا الأسلوب فى الحكم منذ تولى ولاية الشام فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وأصبح له فى نفوسهم ثقة ومكانة لاينازعه فيها أحد ،

والأرجح أن معاوية قد نجح فى التوفيق بين الرأيين ، فمن ناحية طبق نظام الوراثة حين طلب مبايعة يزيد ولياً للعهد . والاستمرار فى البيعة العامة والخاصة كأساس لمشاركة الناس فى اختيار خليفتهم رغم ما رافق ذلك من استخدام أساليب القسر والترهيب والإكراه أحيانا . كما برر معاوية هذا الاتجاه بالفتن والثورات التى اكتوى المسلمون بنارها فترة لا تقل عن ثمانية عشر عاما . ومجمل الخسارة والضحايا والأموال التى استنزفت فرضت على معاوية أن يفكر بطريقة تنأى بالمسلمين عن الخلاف مرة ثانية ، فقاده رأيه إلى جعلها وراثية . لكننا لا نملك الدليل على تبرير مثل هذا الرأى (٢٦).

ويقول أنور الرفاعى : ينبغى أن لا يعزب عن أذهاننا أثر البيئة فى تطور شكل الحكم . كانت المدينة حاضرة الدولة العربية زمن الراشدين وسكانها من العرب وكانت الخلافة تتلاءم مع العادات العربية ولكن عندما أصبحت دمشق عاصمة الدولة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة المتأثرين بالنظم والعادات البيزنطية والفارسية كان على الأمويين أن ينسجموا والبيئة الجديدة (٢٧)

وهكذا يتضح لنا أن ما فعله معاوية ، وسارت عليه الدولة الأموية له مبرراته التاريخيه ، فضلا عن أنه هو الذى

---

(٢٦) انظر عبد الجبار العبيدى الدراسة السابقة بمجلة عالم الفكر .

(٢٧) أنور الرفاعى : مرجع سابق ص ٣٦

سار فى التاريخ الإسلامى ، وبالتأكيد فإن له سلبياته . ونحن قد نستطيع أن نعد هذا النظام سببا من أسباب سقوط الدولة الأموية ، لكن علينا أن نعده كذلك من أسباب سقوط معظم الدول فى التاريخ الإسلامى ... وقد نستطيع أن نتجاوز هذا السبب ونبحث عن أسباب أخرى ، وقد نكون أكثر توفيقا لو قلنا : إنه صورة من صور الحكم ، وأنه يمثل مرحلة الدولة التى يجب أن تقوم على الأمة وفق شريعة الله وليس الأمر أمر الدولة أو الأمة وإنما هو أمر شريعة الله ... شريعة العدل والشورى التى يجب أن تحكم أية صورة من صور الحكم ، وأن تكون النسيج الذى يربط الحاكم بالمحكوم .

كلا ... لم يكن سقوط بنى أمية لأنهم غيروا أو حرفوا أو ابتعدوا عن نظام الحكم فى الإسلام ... وإنما هم مجتهدون أخطأوا أو أصابوا ... وقد أصابوا فى كثير وأخطأوا فى قليل ، وكانوا خيرا من الذين جاءوا بعدهم ، وقد سار الذين جاءوا بعدهم على نهجهم بطريقة أكثر استبدادا وأخطاء ... ذلك لأنهم قد نزلوا إلى أرض الواقع وعرفوا حقيقة أشواك الحكم فى أرض وريثة للعالم القديم بكل آثاره وأوزاره !!

ولم يكن سقوط بنى أمية لأنهم كانوا سببا فى قتل الحسين ، ولأن مصرع الحسين كان الداء الذى سكن جثمان دولتهم حتى قضى عليها ـ كما يقول الأستاذ العقاد (٢٨) .

---

(٢٨) الحسين : سيد الشهداء : ص ١٠٧ طبع القاهرة .

فتلك قضية لها ظروفها وقد دفع الفرع السفيانى ثمنها ، مع أن الملابسات ـ كما تدلنا المصادر الأصلية والروايات المتعددة (٢٩) ـ قد تجعل أطرافا متعددة يتحملون المسئولية ، وليس بنى أمية وحدهم •

وقد رأى الأستاذ عباس العقاد أن النزاع بين المضرية واليمنية ، والذى ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية قد أدى إلى ضياع الدولة الأموية (٣٠) •

وهذا الرأى حول أثر الصراع بين اليمنية والمضرية على الدولة الأموية رأى قديم وشائع (٣١) •• وقد سبق إليه المسعودى عندما ذكر أن التفاخر بين نزار (قيس) واليمن وتحرك العصبية فى البدو والحضر أدى إلى انتقال الدولة من بنى أمية إلى بنى هاشم (٣٢) •

ولا نستطيع أن ننكر تأثير هذه العصبية على مسيرة الدولة الأموية ، بيد أنه تأثير عام أصاب كثيرا من الدول بعد العصر الراشدى ، ولا تنفرد به دولة بنى أمية •• !!

وقد استطاع بنو أمية فى معظم تاريخهم تحقيق

---

(٢٩) انظر الطبرى وابن خلدون فى حادثة قتل الحسين •
(٣٠) معاوية ص ٧٠ طبع القاهرة •
(٣١) القاضى سعدى أبو حبيب : مروان بن محمد ١٣٤
(٣٢) مروج الذهب ٣/٢٤٥

التوازن والعدل بين القوى المتنافسة على الزعامة والشرف ، وكان لهم عمال وولاة وقضـاة من هؤلاء وأولئك ، بل كانوا يولون القضاة العادلين ولو كانوا على علم بموالاتهم لأعدائهم!!

ولئن كان القضاة تابعين للولاة والخلفـاء من الناحيـة الإدارية والتنظيمية فإنهم مستقلون استقلالا تاما فى أمـور القضاء وبعيدون عن سلطة الولاة فى هذا الجانب وفى شئون القضاء .

ونقصد بالاستقلال هنا عدم تأثر القضـاة فى أحكامهم بالولاة وغيرهم ، ومن الاستقلال عدم تدخل الولاة لصـالح أحد الخصوم ، أو للحيلولة دون تطبيق بعض أحكام القاضى .

وقد كان الخلفاء والولاة يعرفون ما للقضاء من حرمـة واستقلال ويتحاشون الدخول فى منازعات مع القضاة .

وإذا قدر وتطاول بعض الولاة وتدخل بنفسه أو بأعوانه لنقض بعض أحكام القاضى فإن القاضى يعلن رفضه الشديد لهذا العمل ، وإذا عجز القاضى عن منع الوالى لقـوة أعوانه أو سطوة سلطانه ، فإن القاضى يعتزل القضـاء معلنـا أن القضاء دخل عليه ما يكدر اسـتقلاله ، والقضـاة لا يتولون قضاء مس استقلاله (٣٣) .

---

(٣٣) محمد الغنام : تاريخ القضاء فى عهد بنى امية ، رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية سـنة ١٤٠٧ ص ٣٩٠ ، ٣٩١

ولم تسـقط الدولة الأموية لأنهـا كانت دولة عربيـة متعصبة ضـد الموالى ، فهذا زعـم لم يقم عليه أى سـند تاريخى ، فقد كان بنو أميـة يوالون مـن يواليهم مهما كان أصله ... بل كان بعض ولاتهم يقرب الموالى ويجفوا العرب مثل عبيد الله بن زياد ، وكذلك كان المختار الثقفى يولى الموالى الوظائف وأعد منهم جيشاً .. وقد أورد ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة المعزو إليه ، وأورد أبو حنيفة الدينورى فى أخباره الطوال ــ صـوراً من المكانة الرسـمية التى يتمتـع بهـا الموالى (٣٤) ..!!

أما قصة ترفع العربى عن التزوج من الموالى ، فحسبنا أن نذكر أن (أولاد عبد الملك : الوليد وسليمان ويزيد وهشام ، وجميعهم صاروا خلفاء ، أو ملوكا ، ثم مسلمة بن عبد الملك ، وعبد الله ، وسعيد ، وهم لأمهـات أولاد ..) أى أن رأس العرب ، خليفة المسلمين الأموى ، كانت أمه أمة من الموالى .. والخليفة مروان أليست أمه أمة ؟ ...

فأى رفع أسمى من هذا للموالى ؟ هل نجد نظيرا له فى أبناء دولة واحدة ، أمريكا ، فرق بين أبنائها اللون .. ؟ (٣٥).

***

---

(٣٤) القاضى سعدى أبو حبيب : مروان بن محمـد وأسباب سقوط الدولة الأموية ١٤٥

(٣٥) المكان السابق .

ولسنا ننكر أن الثورات التى قامت ضد الأمويين على امتداد تاريخهم كانت من أسباب ضعفهم ، فكثرة الضربات على الجسم القوى حقيقة بأن تحدث فيه آثارها ... لكن هذا لا يعنى أن أحد الطرفين مدان دائما ، والآخر برىء دائما على النحو الذى يذهب إليه خصوم بنى أمية !! بل إننا إذا حاكمنا هؤلاء الثائرين إلى نماذج الحكم التى طبقوها بعد وصولهم إلى الحكم ــ شيعة كانوا أو عباسيين أو خوارج ــ لقلنا إن نسبة إدانتهم أكثر بكثير من الأمويين وأنهم إنما ثاروا لأطماع شخصية ، وأن مبادئهم كانت ستاراً لهذه الأطماع، ، اللهم إلا عدداً قليلا منهم !!

وبالتأكيد فإن أقوى الآثار من هذه الثورات جاءت من قبل أولئك الثائرين الصالحين وعلى رأسهم الإمام الشهيد الحسين بن على رضى الله عنه (٣٦) ، ثم عبيد الله بن الزبير وثورة أهل المدينة على يزيد وموقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ، ويلى ذلك قتل سعيد بن جبير ، وحجر بن عدى ، وزيد بن على فى ظروف وأوقات مختلفة (٣٧) .

ولا يبعد كثيرا عن أثر هؤلاء الصالحين أثر قتل من يميل الناس إلى تقديرهم وحبهم مثل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الذى ثار فى الشام وترك قتله أثراً كبيراً على

---

(٣٦) انظر الطبرى والكامل حوادث سنة ٦١ ، ٦٢ هـ د/ عبد الشافى عبد اللطيف ٤٧٢ / ٤٧٨
(٣٧) د/ عبد الشافى عبد اللطيف : مرجع سابق ص ٤٧٩

وقد جابهت دولة بنى أمية حركات قوية ظلت مشتعلة طيلة عهـدها ... فقد كان تعصب ولاة خراسـان لقبائلهم يسبب متاعب كثيرة للدولة الأموية ، فإذا ولى يمنى انحـاز لليمنيين ، كما حدث من أسد بن عبد الله القسرى ، وإذا ولى مضرى انحاز للمضريين كما حدث من الجنيد بن عبد الرحمن ... ولما اختار هشـام بن عبد الملك نصر بن سـيار كانت العصبية قد استحكمت بين العرب فلم يستطع نصر معالجـة الموقف حيث كانت اليمن وربيعة بقيادة على بن جديع الكرمانى فى جانب ، ومضر بقيادة نصر بن سيار فى جانب آخر (٤١) .

ومن أبرز الحركات التى كبـدت الدولة الأموية الكثير من الجهد والمال والرجال حركة الخوارج التى صاحبت الدولة منذ قيامها ... فقد ثار على معاوية عبد الله بن أبى الحوساء بالنخيلة ، ثم خرج حوثرة الأسـدى ، وقد قتلهما معـاوية سنة ٤١ هـ ، ثم خـرج فروة بن نوفل الأشجعى فقتله أهـل الكوفة ، وخـرج المسـتورد بن جوين الطـائى فى الكوفة فقتل (٤٢) ، وخرج عروة بن أدية وأخوه مرداس ، وظهرت النجدات والأزارقة بقيادة نجدة بن عامر ونافع الأزرق ما بين سنتى ٦٥ و ٨٧ هـ فكبدوا الدولة الكثير من الجهد ، وظهر فى الفترة نفسها شبيب بن يزيد ، وخرج شوذب الخارجى سنة ١٠٠ هـ ، وخرج بهلول بن بشر سنة ١٠٥ هـ ، والصحارى بن

---

(٤١) عبد الشافى عبد اللطيف : مرجع سابق ٤٧٩

(٤٢) المكان السابق ٤٥٨ — ٤٦٠

موقف عبد الملك بن مروان والأسرة الأموية (٣٨) ، ومثل المختار بن عبيد الثقفى الذى ثار على الكوفة وفتنة عبد الرحمن ابن الأشعث وفتنة آل المهلب التى طال أمدها ، فضلا عن مقتل بعض القادة الفاتحين الكبار مثل محمد بن القاسم الثقفى فاتح السند وبلوخستان وشبه القارة الهندية ، والذى كان من صنائع الحجاج ورجاله ، فلما تولى الخلافة سليمان ابن عبد الملك وكان مبغضا للحجاج عين على العراق رجلا من ألد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن الذى كان يرى رأى الخوارج ، فقرر صالح الانتقام من أقرب الناس إلى الحجاج حيث كان الحجاج قد لقى ربه فعزل محمد بن القاسم عن السند وأمر بحبسه وتعذيبه حتى مات (٣٩) .

كما انتهت حياة قتيبة بن مسلم فاتح خراسان وفرغانة وطاشغر نهاية قريبة من السابقة وإن كانت الأدلة تميل إلى إدانة قتيبة ، إذ أنه تعجل وخلع طاعة سليمان بن عبد الملك مع أن سليمان كان قد أرسل إليه عهداً بولاية خراسان ، وكان أن ثار الجند أنفسهم على قتيبة وقتلوه (٤٠) .

---

(٣٨) عبد الجبار العبيدى : الدراسة السابقة ، وانظر عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٣٩) انظر فتوح البلدان ٥/٦١٨ ، وانظر نبيه عاقل : مرجع سابق ٢٤٠ ، وعبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ص ٣٦٢

(٤٠) انظر ابن كثير : البداية والنهاية حوادث (٩٦ ، ٩٧) وعبد الشافى عبد اللطيف ٢٥٢ ، وانظر القاضى حبيب : مرجع سابق ١٤٥

شبيب سنة ١١٩ هـ ، ثم خرج شيبان بن عبد العزيز اليشكرى، والضحاك بن قيس الشيبانى بعد وفاة هشام (٤٣) .

وهكذا ظل الخوارج شوكة دائمة فى جسم بنى أمية .. بدأت معهم ، وظلت معهم حتى سقوط دولتهم ...

أما تنظيمات آل البيت ، فقد قامت لهم فى عصر مروان حركتان فشلت الأولى وكانت بقيادة عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب فى الكوفة ، مستغلا اشتداد العصبية القبلية ومعاداة الكوفيين للأمويين التى انتهت بهزيمته وفراره إلى خراسان ووفاته هناك ، أما الحركة الثانية فهى الدعوة العباسية ذلك التنظيم السياسى والعسكرى المحكم الذى كان من نتيجته تلك الطامة الكبرى بالنسبة للأمويين حيث ظهر أبو مسلم والحركة العباسية التى نجحت فى قتل مروان بعد معركة الزاب الكبرى وإزالة البيت الأموى ونقل الخلافة إلى العباسيين (٤٤) .

***

لكننى — مع كل هذا — لا أرى أن السبب الأساسى فى سقوط بنى أمية هو هذه الثورات ... ومن دراستى لعدد من الدول والشخصيات التاريخية وجدت أن هذه الخلافات تكاد

---

(٤٣) المكان السابق وانظر : عبد الجبار العبيدى : الدراسة السابقة بمجلة — عالم الفكر .

(٤٤) عبد الجبار العبيدى : الدراسة السابقة بمجلة عالم الفكر .

تكون من سنن الله الاجتماعية ـ مع اختلاف فى الدرجة بالطبع ـ ولو أننا درسنا أية دولة فى تاريخنا بعد عصر الراشدين فسوف نجد هناك عدداً من المشكلات والتحديات التى تواجهها ، ولم توجد دولة بلا خصوم من داخلها ومن خارجها ... وقد كان فى الإمكان أن تكون هذه المعارضة منظمة وغير دموية ، وكان من الممكن أن تقدم خدمات جلى للدولة الأموية وتحميها من نفسها ومن أخطاء الحكم ، وتدفعها إلى العدل والمساواة ... وقد كانت الدولة ترحب بكل شىء ماعدا حمل السلاح والخروج ـ وهى محقة فى ذلك ..!!

لكن هؤلاء الثائرين ـ فى مجملهم ـ لم يستطيعوا فقه السنن النفسية لتطور الأمم ، وفضلوا الفعل السياسى والعسكرى على الفعل الحضارى .

ولئن كنا لا نستطيع إنكار أثر هذه الثورات إلا أننا أيضا نراها تحديات كانت تثير بنى أمية وتدفعهم إلى اليقظة الدائمة والارتفاع إلى مستوى الاستجابة الملائمة ... وحتى آل البيت الذين كسبوا الجولة ظاهرياً وهزموا الدولة ، وهى أكثر منهم جنداً وأقوى قيادة ، إذ كان مروان بن محمد ـ فى رأيى ـ أقوى من قادة العباسيين ... حتى هؤلاء إنما كسبوا ثمرة العوامل الأخرى ، التى أسقطت الدولة ... وجنوا

قطافها بعد أن كانت الدولة قد وقعت فى سـنواتها السـبع الأخيرة فى مأزق حضارى كبير ...

لقد كان بنو أمية أنفسهم قد بدأوا يتآكلون ... وقـد بدوا وكأنهم أعطـوا ما عنـدهم ... وأفرغوا طاقتهم ... وقالوا كلمتهم وآن لهم أن يمضوا ....!!

الأســباب الأســاسية للســقوط

ثمة ومضة اختبار فى حياة كل أمة تمثل منعطفا خطيرا على أساس ما يتخذ فيه من (قرار) يتحدد مصير الدولة ...

إن هذا القرار سوف يحدد بالضبط هل بقيت لدى هذه القوة مؤهلات القيادة ، وأنها قادرة على الاستئناف والانقلاب على نفسها والقفز من فوق سلبياتها ومشكلاتها لتقوم بدور ملائم للتحديات ... أو أنها قد انهزمت من داخلها ولم تعد قادرة على المبادرات الحضارية .. ؟!!

وبالنســبة للأمويين فى التاريخ حدثت لهم (ومضــة الاختبار) هذه مرتين : —

مرة فى المشرق ... وقد أخفقــوا فيها ... وكان ذلك سنة ١٠٠ هـ !!

ففى سنة ١٠٠ هـ — أى فى الاختبار الأول — حاول عمر ابن عبد العزيز إحداث هذا الانقلاب ... كان سليمان قــد نجح حين ولى عمر على خلاف الســنة المعهودة فى الولاية ، فقدم الفرصة أمام الدولة للاستئناف فى ظل دم جديد ...

لكن بنى أمية رفضوا هذا الإقلاع ، وخافوا أن يخرج عمر ما فى أيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد بعده (١) .

وبموت عمر بن عبد العزيز الغامض والذى تثور حوله الشبهات (٢) عاد بنو أمية سيرتهم الأولى وأجهز الخليفة بعده على إصلاحاته ... وجاهد هشام طيلة عشرين سنة دون أن يكون فى مستوى الإقلاع الحضارى المنشود ، ودون مستوى عمر بن عبد العزيز ورؤيته الحضارية الشاملة .

ومرة فى الأندلس ، بعد أن نزحوا ببقية قوتهم إلى هناك بعيداً عن العباسيين وأنشأوا ملكا لهم سنة ١٣٨ هـ ، وقد حدثت ومضة الاختبار لهم هناك بعد أن كانت دولتهم تعيش فوضى عاتية ... وقد نجحوا وولوا عبد الرحمن الناصر دون أن تكون الولاية له ... فنجح فى قيادة السفينة المترنحة ... فكأن بنى أمية استفادوا من درس المشرق .!!

***

كانت الأرض المفتوحة قد اتسعت أكثر مما يقدرون ..

ــ وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول ــ بذكاء غريب

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ط ٢ الدار العلمية بيروت ص ٩٧

(٢) المكان السابق .

سبقه إليه جده عمر بن الخطاب ـ أن يوقف هذا الامتداد فى الأرض ، حتى يواكبه امتـداد فى الدعـوة ، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة ، ولا الدولة على الدعوة ، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادىء الدين !!

ـ وكان الأمويون لا يعـالجون ثورة إلا ويدخـلون فى علاج ثورة أخرى ... فحتى العباسـيون الأشـداء الذين ورثوهم لم يستطيعوا الحفاظ على المغرب والأندلس وأجزاء من المشرق كان حكمهم فيها شكليا ...

وقد ظن الأمويون أن الرجال الأشداء من أمثال المغيرة ابن شعبة وزياد بن أبيه والحجـاج وآل المهلب قادرون على إحكام قبضتهم ... وهو تصور سـاذج ، إذ أن الفـراغ العقـدى والنفسى والحضـارى لا تكفى فيه هـذه العوامل الخارجية الضاغطة ... بل لابد من تيار حضـارى عقـدى يملأ أركان الحياة !!

ـ إنها معادلة حضارية لم يستطع بنو أمية أن يصـلوا إلى الفقه الصحيح بها .. فإن كل فكرة خلاقة تولد ـ كمـا يقول هاملتون جب ـ طاقة توسعية هائلة بما تغرسه فى نفوس أتباعها من حماسة للدعوة (...) . وهذه القوة لابد من أن تكون من الناحية المثالية ، أداة للفكـرة (الأيديلوجية) التى أوجدتها (٣) ...!!

---

(٣) هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام ص ٥١

وفى الفترة الإسلامية الأولى كانت الفكرة الجديدة ذات طاقات توسعية هائلة • وكانت طاقاتها هذه تتساق فى مجارى التوسع (•••) ولم يقم فى الوقت نفسه نظام داخلى يعادل أداة ذلك التوسع من حيث القوة !! ••• وهذا هو العامل ذو الأثر فى تاريخ الخلافة الأموية ، وهو عامل كثيرا ما أساء فهمه الدارسون من بعد ، إما ذهاباً مع الهوى وإما افتقاراً إلى المعرفة التاريخية ، أو افتقاراً إلى الإحساس بالنظرة التاريخية • وأنا أقول إن الفكرة (الأيديلوجيه) لم يتح لها خلال القرن الأول أو نحوه أن تتجسد فى أية نظم اجتماعية سوى نظام الحكومة • فإذا احتكرت الحكومة وحدها السلطة التى تمارسها لم يكن إلى جانبها نظام آخر ينازعها سلطانها — فلم يكن ثمة اختيار بين احتكار الحكومة للسلطة أو تنازلها عن بعضها لنظام آخر ••• لأن هذا النظام الآخر لم يكن له وجود ، والسلطة على أية حال شىء لا يمكن نقله ، إنما كان الاختيار الوحيد بين احتكار السلطة — سواء أكان يمارسها الأمويون أو غيرهم — وبين الفوضى (٤) •

إننا نجد أن تحول الطاقة لا يضعف نظام الحكم مطلقا فى أول أمره ، ، وذلك لأن مجموعة الطاقة المتوفرة هائلة ؛ ولأن تحولها يجرى على نحو متدرج بطىء • ثم إننا قد رأينا فيما يتصل بالأمويين أن القوة التوسعية التى بعثتها الفكرة

---

(٤) المرجع السابق ص ٥١ ، ٥٢

الإسلامية أصلا إلى الوجود تمثلت فى واقـع الأمـر ، فى صورة قوة توسعية قبلية عربية ، ولما تلاشى حافز الفكرة الذى كان يحدو للتوسع الخارجى فى مرحلة تالية ، كانت الحكومة ما تزال تستطيع الاعتماد على الطابع العدوانى ، الذى وسمت به روح القبائل وأشربته نظرتها ، وأن تستغله فى التوسع (٥).

ومع هذا فلا بد من أن يأتى عاجلا أو آجلا وقت يحصل فيه توازن تقريبى بين قوى التوسع والقوى الخارجية ، وعند هذا الحد إما أن يكون حافز التوسع قد استنزف طاقاته وإما أن يكون قد أصبح أضعف من أن يتغلب على القوى المعارضة ، وعنـدئذ يصبح نظـام الحكـم مضطراً إلى أن يقف موقفاً دفاعياً (٦) .

وهكذا ... أوشك (جب) أن يصل إلى المأزق الحضارى الذى وقعت فيـه الدولة الأموية ، إلا أن رؤيتـه المقيـدة بالسوابق الثقافية قد حالت دون ذلك .. مع أنه اقترب كثيراً من الحقيقة !!

ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية لم تستوعب قانون الامتداد الحضارى . فبعد الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد (بالدعوة) وإ لافقدت مؤهلها للبقاء والتقدم !!

***

---

(٥) هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الإسلام ص ٥٤، ٥٥
(٦) المرجع السابق ص ٥٥

وفى عصرى الانطلاق والازدهار أيام معاوية وعبد الملك والوليد وحتى هشام كان بريق الامتداد يبهر الأبصار ويوجه الطاقات ويقدم تبريرات البقاء ... فلما أوشك هذان العصران على الانتهاء كان لابد للأمويين من تبريرات جديدة يعيشون عليها وتندفع الجماهير خلفهم تحت رايتها ...

وبدلا من أن يوجد أمثال عبد الملك أو الوليد من بناة الدول وصانعى الفتوحات العظيمة أو أمثال عمر بن عبد العزيز من رجال المثالية والدعوة والعدل الشامل وتقديم نموذج الدولة الراشدة لبقية الإنسانية ... بدلا من هذا — قدم الأمويون رجالا من طراز الوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ...!!

ونحن نرجح أن الوليد بن يزيد مظلوم ، وقد رمى بتهم باطلة (٧) ، لكن القدر الصحيح الباقى من سيرته لايؤهله لدور عظيم (٨) ... ونعتقد كذلك أن يزيد بن الوليد كان وبالا على بنى أمية ... إنه نموذج للتدين العاجز الذى يضر أكثر مما ينفع ... ويتهم الأبرياء ابتداء ويميل إلى التجريح فى المستوى العام أكثر مما يميل إلى تبرئة الناس ... وهو

(٧) انظر ابن خلدون ١٠٦/٣
(٨) انظر الطبرى : التاريخ ٢٩٣/٨ حوادث سنة ١٢٥ طبع دار الفكر بيروت ١٩٧٦

من أصحاب الأهواء الجامحة والقلوب المريضة على الرغم من تظاهره بالنسك والتدين !!

إن هذا الخليفة الذى قفز إلى السلطة على أشلاء ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك يتحمل المسئولية التاريخية بالدرجة الأولى فى إجهاض أى أمل فى إقلاع البيت الأموى نحو دور حضارى جديد !!

ـ ومن الغريب أن الخليفة العباسى هارون الرشيد قد أدرك هذه الحقيقة التاريخية التى غابت عن كثير من مفسرى التاريخ الأموى ...

يروى العلامة ابن خلدون فى تاريخه أن ابن الغمـر بن يزيد دخل على الرشيد فسأله : ممن أنت ؟ فقال : من قريش. قال : من أيها ؟ فوجم ... فقال : قل وأنت آمن ، ولو أنك مروان ... فقال : أنا ابن الغمر بن يزيد ... فقال الرشيد : رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقض ، فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه (٩) .

ومما قاله الخليفة العباسى المهدى فى الوليد : إنما كان الرجل محسوداً فى خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بنى عمومته (١٠) .

---

(٩) تاريخ ابن خلدون ١٠٦/٣٠
(١٠) المكان السابق .

ـ ونحن نعتقد أن هذه النعوت إنما قصد المهدى بها يزيد بن الوليد ، فهو رجل كان يخفى الحقد ويظهر النسك !!

وهل كان من الدين أن يصر يزيد على نصب رأس ابن عمه الوليد تمثيلا وتشفياً ، وأن يطاف به على رمح فى دمشق؟! وأى دين هذا ؟!

إنه الحقد والتآكل الداخلى الذى سقط فيه بنو أمية فى هذا الوقت العصيب !!

وبقتل الوليد فتح باب الفتنة داخل البيت الأموى ذاته ... فانتقضت اليمامة ، ووقع الخلاف فى خراسان بين نصر ابن سيار والكرمانى ... وأعلن مروان بن محمد والى أرمينية آنذاك المطالبة بدم الوليد (١١) !!

إن مقتل الوليد الثانى كان نقطة البدء فى تحدى فكرة الشرعية ومسماراً ضخماً فى نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته ، وقد تناولت هذه الفتنة الأسس المكينة التى اعتمد عليها الحكم الأموى بشكل عام إذ كان القائمون عليها من أهل الشام أولا ، ومن الأمويين ثانيا ، وكلا العنصرين أساس فى تثبيت السلطان الأموى (١٢) .

---

(١١) ابن خلدون ٣/١١٢

(١٢) نبيه عاقل / تاريخ خلافة بنى أمية ٣٤٧

إن هذا التمزق الداخلى هو أخطر ما أصاب بنى أمية ..
إن العصبية التى كانت تحفظ تماسك بنى أمية — فى وجه العصبيات الصغيرة والعواصف العامة — قد انشقت ، وفقدت قوتها الذاتية ... ومن عجب أن الحجاج بن بشر بن فيروز الديلمى أحد القدريين أيام الوليد قد أدرك هذا ، ... فقد قال فيما رواه الطبرى عنه : لا يعيش الوليد إلا ثمانية عشر شهرا حتى يقتل ، ويكون قتله سبب هلاك بيته (١٣) ..!!

ونحن فى الحقيقة نكاد نميل إلى أن يزيد بن الوليد يتحمل الوزر الأكبر فى تأجيج هذه الفتنة ، ونميل إلى أنه كان يظهر النسك والتدين لغاية يهدف إليها .. ونحن لا نميل إلى تصديق كل ما قيل فى حق الوليد ، فإن معاصريه أنفسهم كانوا يتشككون فيما يشاع عنه ، فقد قيل لخالد بن عبد الله : أتقبل شهادة الوليد مع مجونه وفسقه ؟ فقال : أمر الوليد أمر غائب عنى ولا أعلمه يقينا إنما هى أخبار الناس (١٤) .. أى أنها مجرد إشاعات ، ونحن نعتقد أن الفريق المناصر ليزيد بن الوليد كان وراء هذه الشائعات ... وقد عرف خالد بن عبد الله بالمؤامرة على الوليد فنصحه بأن لايحج فى عامه فسأله عن السبب فرفض القول بما يعرف فحبسه الوليد (١٥) ... وموقف خالد هذا يدل على وجود (عقلاء) لم يكونوا مع هذا الاتجاه الانقلابى الانشقاقى الذى تزعمه يزيد بن الوليد ... بل

---

(١٣) الطبرى : ٣/٩
(١٤) الطبرى ٣/٩
(١٥) المكان السابق .

إن العباس أخا يزيد الثائر على الوليد رفض الانقياد إليه وقال له عندما دعاه للتآمر ضد الوليد : ــ مهلا يايزيد فإن فى نقض عهد الله فساد الدين والدنيا ، فرجع يزيد إلى منزله ودب فى الناس فبايعوه سرا ، ودس الأحنف الكلبى ويزيد بن عنبسة السكسكى وقوما من ثقاته من وجوه الناس وأشرافهم فدعوا الناس سراً ... ثم عاود أخاه العباس فشاوره وأخبره أن قوماً يأتونه يريدونه على البيعة فزجره العباس وقال · إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقاً ولأحملنك إلى أمير المؤمنين (١٦) .

وقد وصف العباس أخاه يزيد بقوله : (والله إنى لأظنه أشأم سخلة فى بنى مروان ، ولولا ما أخاف من عجلة الوليد مع تحامله علينا لشددت يزيد وثاقا وحملته إليه (١٧) .

فهذا العباس أخو يزيد كان أحد العقلاء الرافضين للأسلوب الانقلابى الذى ابتدعه فى بنى أمية يزيد ...

ومثل العباس وخالد بن عبد الله كان موقف معاوية بن عمرو بن عتبة ... وقد نصح للوليد ، وأخبره بأن هناك بوادر مؤامرة داخلية ضده (١٨) .

ومثلهما كان العلاء بن برد بن سنان ، فقد نهى يزيد عن

---

(١٦) خليفة بن خياط ٣٦٣ والطبرى ٧/٩
(١٧) الطبرى ٧/٩
(١٨) انظر المكان السابق .

الدخول فى هذا الأمر (١٩) . وكان مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بنى أمية فيما بعد ووالى أرمينية ـ قد علم بما يحاك للوليد من يزيد فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى الناس عن السير فى طريق التآمر المظلم ... ويقول لسعيد :

لقد بلغنى أن قوما من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمراً إن تمت لهم على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا باباً لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم (...) فتهددهم بإظهار أسرارهم وخوفهم العواقب لعل الله أن يرد إليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم فإن فيما سعوا فيه تغييرا لنعم وذهاب الدولة (٢٠) .. ويقول مروان أيضا : وقد أمل القوم فى الفتنة أملا لعل أنفسهم تهلك دون ما أملوا ، ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم (٢١) .

فهكذا كان مروان بن محمد أحد العقلاء الذين أبصروا آثار الفتنة وحاولوا الوقوف فى وجهها كما يظهر لنا الكتاب فراسة مروان وبعد نظره وإدراكه لآثار الفرقة والاختلاف وأن محاولة يزيد ستغرق البلاد بالدماء والقتل (٢٢) .

---

(١٩) انظر خليفة بن خياط : تاريخ ٣٦٩
(٢٠) المكان السابق .
(٢١) المكان السابق .
(٢٢) القاضى سعدى ابو حبيب : مروان وأسباب سقوط الدولة الأموية ص ١١٩ ، ١٢٠ طبع دار لسان العرب دمشق .

. وعندما أوشكت مؤامــرة يزيــد وأصحابه على نهايتها حاصروا أخاه العباس ، وأرغمره على المبايعة وزادوا فنصبوا راية وقالوا هذه راية العباس ، وكأن العبــاس يوافقهم على مؤامرة أخيه يزيد ومؤامرتهم ... فلم يملك العباس إلا أن يقول : (ـ إنا لله ... خدعة من خدع الشيطان ... هلك بنو مروان) (٢٣ ...

فلخص العباس بكلماته تلك أبعاد الموقف كله ، وكشف عن رؤية عاقلة على الرغم من أن الخليفة الجديد أخوه .. !!

وموقف آخر يكشف حقيقة خروج يزيد وأبعــاد هذه المؤامرة (٢٤) وما فيها من تجنيات على شخصية الوليد ... ففى أثناء حصاره يزيد وأصحابه للوليد ... طلب الوليد أن يكلم رجلا شريفا من خصومه : فقال له يزيــد بن عنبســة السكاكى : كلمنى ... فقال له الوليد : يا أخا السكاسك ألم أزد فى أعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال السكاكى : إنا ننقم عليك أنفسنا ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكــاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله ...

قال الوليد : حسبك يا أخا السكاسك فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت وإن فيما أحل الله لسعة عما ذكرت (٢٥) ... ورجع

---

(٢٣) الطبرى ١٣١٩ وانظر مضمون مؤامرة خداعهم للعباس فى تاريخ خليفة بن خياط ٣٦٤

(٢٤) القاضى سعدى :مرجع سابق ص ١٢٠

(٢٥) الطبرى : ١٣/٩

إلى الدار فجلس وأخذ مصحفاً وقال : يوم كيـوم عثمـان ونشر المصحف يقرأ (٢٦) ••• حتى قتل •

وهذه المواجهة بين الوليد وخصومه تؤكـد لنا حسـن سياسته تجاه الرعية ، وقد اعترف محاوره يزيد بن عنبسـة السكاسكى بها •••أما دعاواهم الأخرى فهى من باب الإشاعات والتخرصات وأقاويل الخصوم ــ ربما باعتبار ما كان مـن هفوات شبابه أيام ضغوط هشام عليه ــ ونحن نميـل إلى صدق الوليد فيما دافع به عن نفسـه : (إن فيما أحـل الله لسعة) ••• أفلم يجد الوليد إلا أمهات أولاد أبيه (زوجاته الجوارى) ينكحهن ؟ ألا يستطيع الحصول على جوار لنفسه غيرهن ؟ وهل يقتل الناس ــ فضلا عن الخلفاء والحكام ــ لمجرد الإشاعات والدعاوى التى لا دليل عليها ••• لقد صدق خالد بن عبد الله القسـرى حين رفض تفسيق الوليـد وقال لمروجى الشائعات عنه : إنما هى أخبار الناس !!

ولقد كان ابن خلدون أقرب إلى الموضوعية وهو يذكر الاضطراب فى الروايات حول الوليد بن يزيد ••• لكنـه لم يستطع الوصول إلى نتيجة صحيحة ••• يقول ابن خلدون عن الوليد :

« ولقد ساءت المقالة فيه كثيرا ، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه ، وقالوا إنها من شـناعات الأعـداء ألصـقوها به

(٢٦) المكان السابق .

(•••) وقد روى عن الرشيد قوله : رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه (٢٧) •

وقد ذكر ابن علاثة الفقيه ـ فيما أورده ابن خلدون ـ أمام المهدى العباسى أن الوليد كان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التى عليه ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ••• ويشتغل بربه ••• وقد قال له المهدى بعد ما سمع منه : بارك الله عليك يابن علاثة وإنما كان الرجل محسوداً فى خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بنى عمومته مع لهو كان يصاحبه أو جدلهم به السبيل على نفسه (•••) فرموه بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه وخوفوا بنى أمية منه ••• وكان أشدهم عليه فى ذلك يزيد بن الوليد لأنه كان ينتسك فكان الناس إلى قوله أميل » (٢٨) •

ولم يعش الخليفة القاتل (يزيد) إلا خمسة أشهر بعد ولايته (٢٩) ، وبويع ـ بعده ـ أخوه إبراهيم بن الوليد بيعة ناقصة ، إذ انتقض عليه الناس ولم يتم له الأمر ، وكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة ، وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر ثم خلعه مروان بن محمد (٣٠) •

***

---

(٢٧) ابن خلدون : تاريخ ١٠٦/٣
(٢٨) ابن خلدون : تاريخ ١٠٧/٣
(٢٩) المكان السابق •
(٣٠) المكان السابق •

وهكذا بدأت مسيرة الدم داخل البيت الأموى ، وفقدت الأمة إجلالها لهذا البيت المتآكل المتــداعى ... وكان عهــد مروان بن محمد ــ مع العظمة الشخصية للرجــل ــ عهــد اضطراب داخلى ، ولم تعد للبيت الأموى قضية واحدة ... بل صارت معظم المشكلات تدور داخله !!

ومن مسيرة الدم التى تدفقت بين أعضاء البيت الأموى أن يزيد بن الوليد كان قد حبس ولدى الوليد الثانى المقتول ، وهما الحكم وعثمان ــ فى سجون دمشق !!

ولما مات يزيد وولى إبراهيم لم يطلق الولدين ... !! وقد أثار هذا العمل حفيظة مروان بن محمد ، ورفض ــ لهذا ــ أن يبايع إبراهيم ، مع أنه كان قد استكان وكاد يبايع يزيد بن الوليد ...

وقد التقى الجيشان الأمويان بسيوفهما سنة ١٢٦ هـ ، أحدهما أرسله الخليفة إبراهيم بقيادة سليمان بن هشام وفيه مائة وعشرون ألف جندى ... وثانيهما يقوده مروان وفيــه ثمانون ألف جندى (٣١) .

وقد انتصر جيش مروان ... ولكن دفع ولدا الوليــد

---

(٣١) انظــر خليفة بن خيــاط ص ٣٧٢ ، والطبرى حوادث سنة ١٢٧ هـ .

الثمن إذ قتلهما أصحاب السلطة فى دمشق خوفا من المطالبــة بأحدهما خليفة ، إذ كان أبوهما الوليد قد عهد إليهما بالأمر من بعده !!

وكان هذا منعطفا جديداً لمزيد من الدم ، فقد تحــرك مروان إلى دمشق واستولى ــ بيســر ــ عليها ، فقــد كان إبراهيم قد خرج منها هو وسليمان بن هشام ــ وقد توسد مروان الأمور ، وبويع خليفة ، ونقل العاصمة إلى حــران بالجزيرة ... لكن هذا كان إساءة بالغة لأهل الشام .

وقد ساعد الخلاف بين القيسية واليمنية ونقمة أمــراء بنى أمية على فريق أو آخر على إشاعة روح الفوضى والتمرد ... فثــار أهــل فلسطين ، ثم حمص ، وأهــل الغوطــة ، وحوصرت طبرية ، وثارت تدمر (٣٢) !!

وقد نكص على عقبيه ســليمان بن هشــام الذى كان عدواً لدوداً لمروان ، وكان مروان قــد عفــاعنه وأكرمه هو والخليفة المخلوع ... وقد جرت بين جيش مــروان وجيش سليمان معركة قرب قنسرين هــزم فيها ســليمان وتبعتهم خيول مروان تقتلهم وتأسرهم وتنتقم منهم لأنهــم نقضــوا البيعة (٣٣) .

---

(٣٢) انظر خليفه بن خياط ٣٧٤ والطبرى فى حوادث ســنة ١٢٧ وانظر القاضى سعدى أبو حبيب : مروان بن محمد ص ٤٠ ، ونبيه عاقل : مرجع سابق ٣٦١

(٣٤) القاضى السعدى : مرجع سابق ١٣٠

(٣٣) خليفة بن خياط ٤٠٣

وقد بقى مروان ثلاث سنوات يقارع الخصوم والفتن من كل ناحية !! وكانت هذه هى الفرصة التى اســتطاع فيها بنو العباس أن ينضجوا مؤامرتهم !!

وعندما التقى مروان بعبد الله بن على العباس فى معركة الزاب قرب الموصل سنة ١٣٢ هـ كان معه أكثر من مائة ألف ، وقيل فى مائة وخمسين ألفاً ... وكان جيش العباسيين أقــل من هذا بكثير ... ولقد قيل إنه عشرون ألفا (٣٤) ... ومع ذلك هزم مروان الشجاع ... لأنه فقــد الروح ، وفقــدت القوة التى يدافع عنها قضيتها ووحدتها ، وأصبحت عاجــزة عن أن تبصر ما تحت الرمــاد وتستهلكها صراعات داخليــة قاتلة !!

الحقيقة أن نتيجة معركة الزاب نتيجة غريبة ...

— فمروان أفضل من عبد الله بن على خبره ودربة .

— وجيشه أكبر وأكثر خبرة .

— وظــروفه الخارجيــة أفضل كذلك لأنه جيش ينتمى لدولة قائمة .

— ومع ذلك فإن كل ذلك يضيع ...

---

(٣٤) القاضى السعد : مرجع سابق : ١٣٠ .

ـ والسبب واضح ••• فإن القضية لم تعد قضية المعركة ••
بل قضية الدولة والعقيدة التى تقف وراء المعركة •••

لقد كان بنو أمية قد انتهوا ••• كانوا ـ فى الحقيقة ـ
قد انتحروا وهم كبار أقوياء ••• !!

وخلال السنوات السبع الأخيرة أجهزوا على بعضهم ••
وهزمت جيوش أموية جيوشا أموية ••• وكل هذا كان من
مظاهر الانتحار •••

* * *

لقد وقع بنو أمية فى خطأ حضارى كبير ••• وأقدموا
على عمل خطير لقد فشلوا فى إيجاد تيار حضارى بعد أن
اتسعت رقعة الأرض التى يقفون فوقها ••• لقد كان بإمكانهم
تحويل كل المناوئين إلى عاملين معهم ••• فى مجال نشر
الإسلام والعربية والقضاء على الفرق والطوائف والشيع
بالحوار والفكر ونشر الإسلام الصحيح وترجمته إلى لغات
البلاد المفتوحة ••• وتحقيق إسلام وتعريب كاملين لهذه
الأرض الشاسعة التى فتحها الله عليهم ••• أى بإيجاز تحقيق
التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة
والفكر •••

وكانت هذه رسالة عظمى ••• لم يتقدم فيها الأمويون

كما تقتضى طبيعـــة الظروف والتحـــديات ••• وكما تقتضىَ الاستجابة الملائمة للتحدى • وهذا هو الخطـــأ الحضـــارى الكبير •••

وأما العمل الخطير الذى أقدم الأمويون عليه ••• فهو أنهم انتحروا عندما تعاونوا على قتل الأسرة الأموية ، وتبادلوا مواقع الموت ••• وفى سبع سنوات كانوا قد أجهـــزوا على أنفسهم ••• وقضوا على أسرتهم التى حملوا رايتها ••

إنه لا أسباب حقيقية (أساسية) تذكر لسقوط بنى أمية ••• فكل الأسباب التى يجنح إليها الدارسون أسباب لا تكفى لسقوط هؤلاء العظماء ••• وهى أسباب تكاد توجد فى معظم الدول والحضارات •• بل بعضها من السنن الاجتماعية ••• وكثير من الدول عاشت أضعاف ما عاشوا وهى تحمل جراثيم الفناء أكثر مما كانوا يحملون ••• ولهذا ــ وكما ناقشـــنا فى ثنايا البحث ــ يمكن أن تتداعى كل الأسباب التى تســـاق فى هذا الطريق •••

وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان ••

حقيقة أنهم انتحروا من داخلهم •••

وحقيقة أنهم لم ينبعثوا بتيار حضارى يتمم تيـــارات

الفتوحات ويكمله ، ويمتص كل حركات الخروج والفتن •••

فهكذا التاريخ الحضارى دائما •••

إما أن تتقدم أو تموت •••

ولا سكون فى تاريخ الإنسانية !!

ملحق ١

الخلفـــاء الأمويون فى المشرق

١ ــ معاوية بن أبى سفيان	٤١ ــ ٦٠ هـ
٢ ــ يزيد بن معاوية	٦٠ ــ ٦٤ هـ
٣ ــ معاوية بن يزيد	٦٤ ــ ٦٤ هـ
٤ ـــ مروان بن الحكم	٦٤ ــ ٦٥ هـ
٥ ــ عبد الملك بن مروان	٦٥ ــ ٨٦ هـ
٦ ــ الوليد بن عبد الملك	٨٦ ــ ٩٦ هـ
٧ ــ سليمان بن عبد الملك	٩٦ ــ ٩٩ هـ
٨ ــ عمر بن عبد العزيز	٩٩ ــ ١٠١ هـ
٩ ــ يزيد بن عبد الملك	١٠١ ــ ١٠٥ هـ
١٠ ــ هشام بن عبد الملك	١٠٥ ــ ١٢٥ هـ
١١ ــ الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥ ــ ١٢٦ هـ
١٢ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ هـ ١٢٦ هـ
١٣ ــ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ ــ ١٢٧ هـ
١٤ ــ مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ هـ ــ ١٣٢ هـ

ملحق ٢

خلفـــاء الدولة الفاطميـــة
فى
المغــرب ومصر

١	ـــ عبيد الله المهدى	٢٩٧ ـــ ٣٢٢ هـ
٢	ـــ القائم (محمد ابو القاسم)	٣٢٢ ـــ ٣٣٤ هـ
٣	ـــ المنصور (اسماعيل أبو طاهر)	٣٣٤ ـــ ٣٤١ هـ
٤	ـــ المعز لدين الله (معد أبو تميم)	٣٤١ ـــ ٣٦٥ هـ
٥	ـــ العزيز بالله (نزار أبو منصور)	٣٦٥ ـــ ٣٨٦ هـ
٦	ـــ الحاكم بأمر الله (المنصور أبو على)	٣٨٦ ـــ ٤١١ هـ
٧	ـــ الظاهر لإعزاز دين الله (على أبو حسن)	٤١١ ـــ ٤٢٧هـ
٨	ـــ المستنصر بالله (معد أبو تميم)	٤٢٧ ـــ ٤٨٧ هـ
٩	ـــ المستعلى (أحمد أبو القاسم)	٤٨٧ ـــ ٤٩٥ هـ
١٠	ـــ الآمر (المنصور أبو على)	٤٩٥ ـــ ٥٢٣ هـ
١١	ـــ الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون)	٥٢٤ ـــ ٥٤٤ هـ
١٢	ـــ الظافر (إسماعيل أبو المنصور)	٥٤٤ ـــ ٥٤٩ هـ
١٣	ـــ الفائز (عيسى أبو القاسم)	٥٤٩ ـــ ٥٥٥ هـ
١٤	ـــ العاضد (عبد الله أبو محمد)	٥٥٥ ـــ ٥٦٧ هـ

قائمة المصادر

١ ـ أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام ـ ترجمة حسن إبراهيم ـ القاهرة .

٢ ـ الأنبارى (عبد الرزاق) : تاريخ الدولة العربية فى العصر الراشدى والأموى ـ بغداد ١٤٠٦

٣ ـ الجابرى (محمد عابد) : فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة ـ دار الطليعة ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٢

٤ ـ جب (هاملتن) : دراسات فى حضارة الإسلام ـ ترجمة احسان عباس وآخرين ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٣

٥ ـ أبو حبيب (القاضى سعدى) : مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية ـ دار لسان العرب .

٦ ـ حسن على حسن : العاضد لدين الله ـ بحث بمجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض العدد الثانى ١٩٧٣

٧ ــ ابن حــزم : جمهرة أنساب العرب ــ ط ١ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٢ هـ

٨ ــ : رسالة أسماء الخلفاء ــ ملحقات جوامع السيرة ــ تحقيق احسان عباس دار المعارف ــ مصر .

٩ ــ ابن حمــاد : أخبار ملوك بنى عبيد ــ دار العلوم ــ الرياض تحقيق التهــامى النقرة وعبد الحليم عويس .

١٠ ــ ابن خلدون (عبد الرحمــن) : تاريخ ابــن خلــدون (العبر) ــ بيروت ١٩٧١ م .

١١ ــ : مقــدمة ابن خلدون ــ تحقيق على عبد الواحد وافى ــ مصر .

١٢ ــ خليل (عماد الدين) : ملامح الانقلاب الإســلامى فى خلافة عمــر بــن عبد العزيز ــ ط ٢ الدار العلميــة للطبــاعة والنشر ــ بيروت .

١٣ ــ خياط (خليفة) : تاريخ خليفــة بن خيــاط ــ تحقيق اكرم ضياء العمرى ــ دار القلم ط ٢ ١٩٧٧ م .

١٤ ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الخلفــاء والملوك والسلاطين ــ تحقيق سعيد عاشور ــ نشر جامعة ام القرى ــ مكة المكرمة ــ ط ١

١٥ ــ الرفاعى (أنور) : النظم الإسلامية ــ دار الفكر ــ دمشق ١٩٧٣

١٦ ــ سرور (محمد جمــال الدين) : ســياسة الفــاطميين الخارجية ــ مصر ١٣٩٦ هـ .

١٧ ــ السويكت (ســليمان) : منهج المسعودى فى كتــابة التاريخ ــ السعودية ط ١ ١٩١٦

١٨ ــ شلبى (أحمد) : الإســلام ــ ط ٧ النهضــة المصرية ١٩٨٣

١٩ ــ شهبة (ابن قاضى) : الكواكب الدريــة فى الســــيرة النورية ــ تحقيق محمــود زايــد ــ بيروت ١٩٧١

٢٠ ــ الطبرى (ابن جرير) : تاريخ الأمــم والملوك ــ دار الفكر ١٩٧٩ م .

٢١ ــ عاقل (نبيه) :تاريخ خلافة بنى أمية ــ ط ٤ ــ بيروت ــ دار الفكر ١٤٠٣ هـ .

٢٢ ـ العبادى (أحمد مختار) : فى تاريخ المغـرب والاندلس
ـ الاسكندرية •

٢٣ ـ عبد اللطيف (عبد الشافى محمد) : معالم الإسلام فى
العصر الأموى ـ دراســة سياسية ـ
ط ١ ـ مصر ١٤٠٤ هـ •

٢٤ ـ العبيدى (عبد الجبـار منسى) : قــراءة جـديدة فى
أســباب سقوط الدولة الأموية ـ عالم
الفكر ـ العدد ٣ المجلد الخامس عشر
ـ الكويت •

٢٥ ـ ابن عربى (ابو بكر) : العواصــم من القواصــم ـ
محب الدين الخطيب ـ مكتبة اسامة بن
زيد ـ لبنان ١٩٧٩

٢٦ ـ العقاد (عباس محمود) : الحسين ســيد الشهداء ـ
القاهرة •

٢٧ ـ عويس (عبد الحليم) : قضية نسب الفاطميين امام
منهج النقد التـاريخى ـ دار الصحوة
بالقاهرة ط ١ ١٩٨٥ م •

٢٨ ـ الغنام (محمد) : تاريخ القضاء فى عهد بنى أمية ـ
رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمـد
ابن سعود الإسلامية ١٤٠٧ هـ •

٢٩ ــ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ــ القاهرة ١٩٦٨ م •

٣٠ ــ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ــ ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم ــ ط ١ ١٩٣٤

٣١ ــ الكاشف (السيدة اسماعيل) : مصادر التاريخ الإسلامى ــ الخانجى ١٣٩٦ هـ •

٣٢ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ــ بيروت •

٣٣ ــ المسعودى (ابو الحسن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ دار الفكر •

٣٤ ــ النعمان (القاضى) : كتاب افتتاح الدعوة ــ تحقيق فرحات الدشراوى ــ تونس •

٣٥ ــ النجار (محمد الطيب) : الدولة الأموية فى المشرق ــ مصر ط ٣ ــ ١٣٩٧ هـ •

الفهـــــــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٣٩٨٩ / ٨٧
الترقيم الدولى ١ ــ ٢ ٠ ــ ١٤٣١ ــ ٩٧٧

مطبعـة عبـير للكتـاب والأعمـال التجـارية
١٦ ش لمعى المطيعى ـ حدائق حلوان
ت : ٦٨٨٤٨٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

هـــذا الكتـــاب

لقد استرعى السقوط السريع للدولة الأموية أنظار كل المهتمين بأحداث التاريخ ... وأوردت معظم المصادر أسباباً لهذا السقوط مثل : الملك العضوض والعصبيّة وكثرة الثورات وقتل بعض الصالحين ... الخ .

وهذا الكتاب يناقش كل تلك الأسباب ويوضح انها ــ وحدها ــ لم تكن بكافية للتعجيل بسقوط تلك الدولة التى ضمت العديد من الرجال العظماء بأعمالهم وبشخصياتهم ، والذين امتدت الدولة الإسلامية فى عهدهم كما لم تمتد فى عهد غيرهم .

وينتهى المؤلف قائلا : « إنه لا أسباب حقيقية تذكر لسقوط بنى أمية ، فكل الأسباب التى يجنح إليها الدارسون لا تكفى لسقوط هؤلاء العظماء ، وهى أسباب تكاد توجد فى معظم الدول والحضارات ، بل بعضها من السنن الاجتماعية ، وكثير من الدول عاشت أضعاف ما عاشوا وهى تحمل جراثيم الفناء أكثر مما كانوا يحملون .. ولهذا ــ وكما ناقشنا فى ثنايا البحث ــ يمكن أن تتداعى كل الأسباب التى تساق فى هذا الطريق ، وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان :

ــ حقيقة أنهم انتحروا من داخلهم .
ــ وحقيقة أنهم لم ينبعثوا بتيار حضارى يتمم تيار الفتوحات ويكمله ، ويمتصُّ كل حركات الخروج والفتن .

فهكذا التاريخ الحضارى دائما .. إما أن تتقدم أو تموت ..!! ولا سكون فى تاريخ الإنسانية » .

دار الصحوة
٧ ش السراى بالمنيل ــ ت : ٩٨٧٩٢٤
حدائق حلوان ــ ت : ٦٨٨٠٧١
القاهـرة

Bibliotheca Alexandrina
03444741

مطبعة المدينة - ت ٩٨٣٢٥٩